جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
برنامج دراسات التنمية

تنمية عَ البساطة

د . وداد البرغوثي

حزيران 2007

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
برنامج دراسات التنمية

تنمية عَ البساطة

(منهج في التنمية)

وداد البرغوثي

تقديم: نادر سعيد

كاريكاتير: محمد أبو عون

مساعدة فنية: عماد الصيرفي

مساعدة إدارية: ألفت دار عثمان

حزيران ٢٠٠٧

©حقوق الطبع محفوظة ٢٠٠٧
برنامج دراسات التنمية - جامعة بيرزيت

رام الله
هاتف: ٢٩٥٩٢٥٠ ٢ (٩٧٢+)
فاكس: ٢٩٥٨١١٧ ٢ (٩٧٢+)
ص.ب. ١٨٧٨ رام الله

غزة
تلفاكس: ٢٨٣٨٨٨٤ ٨ (٩٧٢+)
٢٨٢٦٧٥٥ ٨ (٩٧٢+)

بريد الكتروني: dsp@birzeit.edu
صفحة الكترونية: http://home.birzeit.edu/dsp

ISBN 978-9950-334-04-5

الآراء الواردة في الأوراق لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسات القائمة على تنظيم المشروع

التصميم والاخراج الفني: أضواء للتصميم، ٠٢٢٩٨٠٥٥٢

قائمة المحتويات

تنمية عَ البساطة: فكر تنموي من الدرجة الأولى ٥
أبو بسام "المش متعلم" معلم ١٢
مريم إسحاق شهيدة التنمية ١٣
وللشعراء في التنمية رأي ١٥
أكلة لحوم... عفواً... حقوق البشر ١٩
قصيدة بالعامي "حوار بين فقير وصاحب مصنع" ٢١
في نفايات الأغنياء أفضل مما في بيوت الفقراء ٢٣
وراء كل بائع.. قصة ٢٥
ذكريات البيدر ٢٨
عيد.. طابور.. دموع ٣٠
في رحيل أم خليل كلمة وليس رثاء ٣٢
لو كنت مكان السلطة ٣٣
تنمية عَ الناشف ٣٥
ديمقراطية الثقافة.. ديموقراطية التنمية ٣٧
الأطفال زينة الحياة لا وقود نارها ٣٩
من شرب من بير ما بيرمي فيه حجر ٤١
التعليم بالمقايضة على بوابة الألفية الثالثة ٤٣
عولمة نعم.. ولكن انحلال وانتحار.. لماذا؟ ٤٥
العلم أبعد من الخيال.. والظلم أيضا ٤٧
أمنية حوض النعناع ٤٩
ونغرق في الوحل ٥١
الإسكان شجون وجنون ٥٣
تذاكر مجانية لموت عاجل ٥٥
أوعى تقوم يا "محسوم" ٥٧
مسافة بين الجاهزية والتحمل ٥٩
بيضة عن بيضة تفرق ٦١

ليس عيباً أن يكون الإنسان "حمار نفسه" ٦٣
ضمائر عاطلة عن العمل "دخيلكم شغلوها" ٦٥
أجبرها على الزغاريد.. أجبروها على البكاء ٦٧
بطلت توفي مع حدا مع الفلاح بتوفي ٦٩
عاشور المغلوب وتقليب الجيوب ٧١
صندوقي ع جنبي أنا البويجي ٧٣
لأننا مللنا رؤية الحبر على الورق ٧٥
ومن الطب ما قتل ٧٧
"اللهم نجنا من غلاء القوت وخراب البيوت" ٧٩
المدهش والأكثر إدهاشاً في طفولتنا ٨١
جنازير و خنازير والمخفي أعظم ٨٣
لنحتفظ بالحذوة حتى تأتي الفرس ٨٥
حتى لو كان كل ما يلمع ذهبا ٨٧
هم بجيب هم ودم بيجر دم ٨٩
هل ستبقى حقوق العمال طاسة وضايعة؟ ٩١
أطفالنا الصغار ضحايا الاستثمار والعشوائية ٩٣
مشاريع.. ذنبي أنا مشاريع؟ ٩٥
أعطوني صوتكم ولن تندموا" ٩٨
نحن "طماعون" والعياذ بالله فهل سنحقق ولو شيئا بسيطا من " أطماعنا"؟ ١٠٠
ثقافة "بنت عيشة" ١٠٢
"فراقهم عيد " ١٠٤
هل يتحول أمل البلاد إلى يأس يثير الشفقة؟ ١٠٦
حذار من حرب ديوك يذبح فيها الغالب والمغلوب ١٠٨
قبل أن يشهر الجياع سيوفهم ١١٠
الضيف بغض الضيف ١١٢
في "ماسية" الزيتون و"شلتونة" الحكومة ١١٤
لا تسيروا على خطى صبيحة ١١٦
هور يابو الهوارة... نسيونا جوا الوزارة ١١٨

تنمية ع البساطة: فكر تنموي من الدرجة الأولى

نادر عزت سعيد[1]

لقد أسعدنا قبول الدكتورة وداد البرغوثي (وداد) الكتابة في بيدرنا منذ العدد الأول، وها نحن نقدم في هذا الكتاب (٥٧) مقالا من مقالاتها التي كتبتها للملحق الصحفي (البيدر) الصادر عن برنامج دراسات التنمية – جامعة بيرزيت، خلال الفترة الواقعة بين ٢٥ أيار ١٩٩٨ و٢٧ شباط ٢٠٠٧، وكانت جميعها ضمن عمود خاص بها، تحت عنوان شامل (تنمية ع البساطة). تناسقت كتاباتها مع ملف العدد الذي طرحناه في البيدر ارتباطا بالواقع المعاش في حينه، ولكن بدون ملل أو تصنع. وبرغم معالجة قضايا محددة، إلا أن ما نقدمه له أبعاد نظرية – مفاهيمية وسياساتية تتجاوز الزمان والمكان المحددين.

وفي تناغم واضح مع شخصها وأفكارها قامت وداد بشغل ذلك الحيز الذي بقي مهملا من قبل الأكاديميين التقليديين في مجال التنمية والمنظرين للتنمية المعولمة وكذلك مناهضيها. ليس غريبا أن تكتب وداد تحت عنوان (تنمية ع البساطة)، فقد سبقها متميزون أخرون، مفكرون تنمويون من أنحاء مختلفة في العالم، للحديث عن التنمية البسيطة (Simple Development)، والتي تم التعبير عنها بشكل واضح من خلال كتابات E. F. Schumacher، الذي اشتهر من خلال كتابه الذي نشر أول مرة سنة ١٩٧٣، إثر أزمة النفط وتأثيراتها الكارثية على اقتصادات العالم والتي تلاها توسع غير مسبوق في مفهوم العولمة. لقد كان (شوماخر) معارضا للنظريات الاقتصادية الكلية النيو-كلاسكية، وأكد أن البساطة وصغر الحجم هي المكون الرئيسي لما هو (كبير)، فالبساطة وصغر الحجم هي أعمدة اللامركزية، ونقطة تحول في مجال الاهتمام بالبيئة والحفاظ على المصادر. كما أن لهذا المنهج جذوراً في تجارب العالم الثالث، واهتماماً خاصاً بالعمل الذي يجب أن يرتبط بالكرامة الإنسانية والحرية. واعتبر شوماخر أن الأنظمة هي تناسخ وانعكاس لتوجهات الناس أنفسهم، وتصبح لها حياة خاصة بها تحدد القدرات الإنسانية. وليس شوماخر هو الأول في هذا المجال، بل استقى أفكاره بشكل واضح من الثقافات الدينية القديمة كالبوذية، والروحانيات التي اتبعها الهنود الحمر (السكان الأصليين)، الذين ركزوا على التناغم بين الإنسان والبيئة المحيطة به، وربطوها بالجانب الروحي، فالعناية بالطبيعة ضمن التناغم معها نوع من العبادة. كما اعتبروا أن الوصول إلى الحد الأقصى من الحياة الجيدة، بأقل كم من الاستهلاك والهدر للمصادر هو هدف سام.

---

[1] نادر عزت سعيد: دكتوراة – علم الاجتماع، مدير برنامج دراسات التنمية – جامعة بيرزيت، ورئيس تحرير البيدر – الملحق الصحفي التابع للجامعة.

[2] E. F. Schumacher, Small is Beautiful: Economics as if People Mattered, 1973, Hartley & Marks Publishers. Re-issued in 1999.

إن كتابات وداد هي جزء من هذه الحركة العالمية نحو العودة للجذور، الاهتمام الجوهري في الإنسان ليس ضمن الشعارات فقط، وهي جهد، من كاتبة (قروية) خبرت العالم، للدفع باتجاه أنسنة التنمية في ظل التيار النيو-ليبرالي الجارف. وفي ظل الصمت المحلي، والإقليمي والعالمي، وفي ظل التساوق مع النظريات المعولمة السائدة والأجندات التي تتبناها المؤسسات الدولية وحليفاتها من المؤسسات الإقليمية والمحلية، تصدح وداد بصوتها اللطيف والمفعم بالنشاط والحيوية، لتذكرنا وبدون كلل بأنه ما زال هناك أمل لبديل إنساني – جذوري، تقولها بدون وجل أو مواربة، تقولها كما هي.

"تنمية ع البساطة" بسيطة في مظهرها (وليس في البساطة عيب)، عميقة في جوهرها، فهي رؤية تنموية تنطلق وتعزز مدارس تنموية تقدمية، تتناقض مع مدارس الليبرالية الجديدة والعولمة وما يأتي معها من مؤسسات وبرامج ومشاريع. لقد قدمت وداد فكرا تنمويا، لن يكون المجال هنا لتحليليه بشكل كاف، ولكن ما نقوم به هو التنويه لبعض المداخل من أجل التحليل المستقبلي.

وضمن نظرتها الشمولية، عالجت وداد مجموعة كبيرة من المواضيع ذات الأهمية القصوى في الحوار التنموي الفلسطيني والعالمي: العولمة، البيئة، الفقر، التعليم، الصحة، الإسكان، النوع الاجتماعي، البنية التحتية، اعمل، الفساد، تشغيل الأطفال، الثقافة الاستهلاكية، دور المؤسسات الدولية، والتمويل الدولي. كما عالجت القضايا في سياق فلسطيني، بما في ذلك: المستوطنات، العملية السلمية، دور مؤسسات السلطة والمنظمات الأهلية، النقابات العمالية، حقوق العمال، التأمين الصحي، المنتوجات المستوردة والفاسدة، الزراعة، الأرض، الفساد في السلطة والمؤسسات، سكان المخيمات، المسنون، النساء، وأطفال الشوارع.

ولم تخل أي مقالة لها من رؤية حول مواضيع التنمية المختلفة، فقد هاجمت العولمة والنظام العالمي الجديد ووصفتها (بالانحلال والانتحار) (وبأكذوبة القرية الصغيرة)، وربطتها بزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، والتي تدلل على مظاهرها العديدة والتي منها (في نفايات الأغنياء أفضل مما في بيوت الفقراء). وليس أدل على هذه الفجوة المتلازمة مع أليات العولمة ومؤسساتها، من قصيدتها (وللشعراء في التنمية رأي)، حيث تؤكد على موقفها الناقد (وتقول لي: دعم لنا ... هي تنمية، أنا لا أحب الادعاء، هي غزو واختراق للصدور، وهي غزو واحتلال للعقول، .... أصبحت تحكمنا في بيتنا، ..... أصبحت في عمقنا شرقا وغربا، ... أخذت تصريحها منا بدعوى التنمية). وفي تناقض ساخر مع إدعاءات المولين الدوليين من ناحية، وتضامن جوهري مع فقراء إفريقيا من ناحية أخرى، تقول في نفس القصيدة (ادعموا الصومال إن شئتم ففيها بالملايين، يعدون الجياع، ادعموا من يبحثون عن فتات الخبز في كوم القمامة، وانقذوهم من ضياع). وهي إذ تسأل تعرف الإجابة مسبقا، فترد على على نفسها (وكأني بجواب من وراء الأفق يأتي: ليس في الصومال ما يدعى انتفاضة، فبماذا

سنقايض جوعهم، فليجوعوا ما يشاؤون فهم أحرار في الجوع، وفي العري وفي بيع الكرامة، نحن لا نطعم جوعى، نحن نبني التنمية).

ومن خلال كتاباتها، رفعت وداد صوت الفقراء والمظلومين والبسطاء والطبقات الكادحة عموما، كما قامت بتعظيم خبرتهم وأشادت بأهمية الاستفادة من تجارب وخبرات الناس (البسطاء) لملامستها للحقيقة وللجوهر. ومن هنا قدمت لنا تجارب (أبو بسام المش متعلم معلم)، ومريم اسحق والتي اعتبرتها خبيرة اقتصادية بارزة في قريتها وهي تعتمد في إعالة أسرتها على تربية ورعي الغنم، وماجد العامل الذي أصيب بحادث في ورشة ودخل في غياهب الروتين المؤسساتي في ظل غياب الحماية لحقوقه، وإياد طفل الشوارع الذي يحاول أن يدعم أسرته ويعيلها فتدهسه سيارة في ظل غياب الاهتمام المجتمعي، والبويجي الذي يصر أن يبقى صندوقه على جنبه، ومصباح (اللي بيته يقع شمال المحسوم وأرضه تقع جنوب غرب المحسوم). وبقيت وداد مخلصة لهموم وخبرات أمهات وزوجات الشهداء، وكان مقالها حول الظلم المجتمعي لهن (أجبروها على الزغاريد .... أجبروها على البكاء) أدل وأعمق ما أتى حول الموضوع.

وكان موضوع الأرض، وما يرتبط به من هموم المزارعين والفلاحين في الريف الفلسطيني، خيطا يربط غالبية مقالات وداد، فاهتمامها بالمزارعين وهمومهم جاء عبر نظرة وطنية من ناحية، حيث أهمية الأرض وحمايتها من الاستيطان، ونظرة نقابية من ناحية أخرى، حيث الهموم اليومية والفعلية للفلاحين الذين فقدوا كل الدعم في السلطة وعانوا أشد المعاناة في ظل الاحتلال، ونظرة تنموية أيضا من حيث أهمية الزراعة وخصوصا العضوية منها وكذلك مفهوم الكفاية الذاتية وعدم الاعتماد على الأسواق الخارجية خاصة السوق الإسرائيلي. فهي تعشق (ذكريات البيدر) وتضعها بمفهومها الرومانسي، ولكن أيضا تربط ذلك بالواقع المعاش، حيث تقول (أشتاق إلى الزرع الأخضر، وأحن إلى القمح على البيدر، أتغزل في العشب النامي، فالأرض تحقق أحلامي، أشتاق وأشواقي تكبر). ومن خلال ذلك تنوه لمعاناة الفلاحين (في عز الحر) وكدهم، وحقوقهم المهدورة. وتنوه بشخصيات مرتبطة بالأرض مثل (أبوبسام الذي زرع الأرض واستصلحها)، وهو بذلك حماها من الاستيطان. وهي تتحدث عن هموم المزارعين بالتفصيل من حيث قضايا البذور والأسمدة والتسويق والمنافسة غير الشريفة من قبل المزروعات المستوردة، ودور السلطة في ذلك. وفي نقاشها (لهموم المزارع) تقترح (وبدرجة من الجدية)، بأن يتعلم أبناء الفلاحين بالمقايضة، فهم يقدمون المنتوجات الزراعية للمعلمين ويحصلون منهم على التعليم بالمقابل. وتشير، في مواقع عديدة، لعدم قدرة الفلاحين على الذهاب لقطف الزيتون بسبب قرب الأرض من المستوطنات والممارسات الوحشية للمستوطنين. وهي تحزن على العقوق بالأرض، وتعبر عن أهمية عودة الإنسان لأرضه وقيامه بالعمل بنفسه (حتى في حالة حصوله على الدرجات التعليمية العالية كما في حالتها) في مقالتها بعنوان (ليس عيبا أن يكون

الإنسان حمار نفسه). وهي تعامل الأرض بقدسية وتشبهها بالأب أو الأم الرحيمة، حيث تصف معاملة الأبناء للأرض من خلال قولها (أعلمه الرماية كل يوم، فلما اشتد ساعده رماني)، كتعبير عن إهمال الأرض من أبنائها، وأهمية الانتماء لها. وتتحسر على الزيتون الفلسطيني والزيت في ظل فتح السوق الفلسطيني للزيوت من الخارج وتبخيس ثمن الزيت المحلي وتصعيب القدرة على تصديره (أما زيت الزيتون يا حسرة عليه، نستخدمه للشعارات، ونطلق أهات التوجع حين يحرقه المستوطنون)، ولكننا لا نعمل فعلا على تطوير وحماية هذا القطاع. ومن القضايا الطارئة التي تثيرها مرارا قضية المياه، وتشير لمقارنات بين استهلاك الفلسطينيين للمياه واستهلاك المستوطنون الذي يبلغ عشرة أضعاف. وفي مقالتها بعنوان (لو كنت مكان السلطة) تقترح العديد من الاقتراحات للعمل بجد على تطوير القطاع الزراعي. وتنبه مرات عديدة لإهمال الحكومة، وفي نفس الوقت تمجد شجرة الزيتون وبركتها (في ماسية الزيتون، وشلتونة الحكومة)، وهي هنا تشير إلى مصطلحات تراثية حيث يوصف موسم الزيتون الوفير (بالماسية)، والموسم الضعيف (بالشلتونة). وتخدم مقالاتها، حول الأرض والزراعة وحياة الفلاحين، كسجل يوثق التراث الفلسطيني وطبيعة الحياة الفعلية للفلاحين، وينقلها عبر الأجيال فتخدم بذلك دورا تثقيفيا مهما في الحفاظ على الرواية الفلسطينية.

وتدعو وداد لتحمل المسؤولية في عديد من كتاباتها، وتشير إلى دور الناس في تحقيق التنمية أو هدرها، (فالاحتلال مسؤول، قيادتنا مسؤولة، أجهزتنا مسؤولة، أحزابنا .....، تجارنا ....).وتعيب اللجوء لتحميل المسؤولية للآخرين، وإدعاء الانجازات عند النجاح والتهرب من المسؤولية عند الفشل. وتحذر، في هذا المجال، من السير (على خطى صبيحة التي قال فيها المثل: إذا أجت مليحة من صبيحة، وإذا أجت عاطله قولوا من ألله).

وهي إذ تقدم وجهة نظرها في قضايا التنمية المختلفة، تقدمها بأساليب عديدة منها النص الأدبي، والتحليلي، والمقطوعات الشعرية والزجل، والأمثال الشعبية والحكم، والقصص التراثية. ومن بين القصص التراثية التي تسوقها (قصة البويجي في الجيش الانجليزي)، الذي سعى لتحسين أوضاعه المعيشية فالتحق في العمل ضمن الجيش الانجليزي، ولكنه، أخيرا، خسر وظيفته وخسر أهله. وتشير أيضا إلى قصة (عاشور المغلوب وتقليب الجيوب)، حيث تشير، من خلاله، لدور الإعلام في التحايل من أجل تجميل البضائع المختلفة ونشر ثقافة الاستهلاك، حيث تصف دور الإعلانات وكأنه (قول القصيد في مدح القميص المجيد).

وتستخدم وداد العديد من الأمثال الشعبية والتي من بينها: اللي بدو يصير جمال بدو يوسع باب دارو، واللي بشرب من بير ما برمي فيه حجر، ودوام الحال من المحال، فراقهم عيد، هم بيجيب هم ودم بيجيب دم، وغير ذلك. وتستعين بالعديد من الشعراء العرب والفلسطينيين كتأكيد على

سعة اطلاعها وثقافتها والمشترك بينها وبينهم، ومن بين هؤلاء: فدوى طوقان، والشاعر اليمني الكفيف عبدالله البردوني، وبيرم التونسي، ونوح ابراهيم، ومحمود درويش. وتتضامن من خلال الزجل الشعبي مع لبنان لتؤكد الترابط بين الشعبين والقضيتين، فتكتب أهزوجة (لبنان يا لبنان، كل شي فيكي غلي، ما حل يغلى فيكي الإنسان)، وكأنها تعبرعن الحالة الفلسطينية بأبعادها الداخلية والخارجية. وبالإضافة لما سبق من ذكر للشعر، فهي تستخدم الشعر الزجلي في مساجلات حوارية بين الأغنياء والفقراء، في تشابه كبير مع ما هو في التراث الشعبي الفلسطيني من حوارات زجلية بين (السمراء والبيضاء) وغيرها. وتستعين بالهوارة لتستقي منها عنوان مقالتها (هور يا أبو الهوارة .... نسيونا جوا الوزارة، تذكرنا وقت التصويت، نسينا جوه الوزارة)، في انتقاد لأداء الحكومة. وتستخدم أسلوب الدعاء أحيانا مثل (أللهم نجنا من غلاء القوت وخراب البيوت).

ولا تبخل علينا وداد بالنوادر والسخرية اللاذعة، والتي تأتي في النصوص ضمن سياقها، فنستقبلها بكل أريحية وتفهم. وتعبر عن نقدها للموظف الذي يتشبه بالمزارع، فتخاطبه بعبارات مثل (حتى النتشه بتصير تضحك عليك وانت بدك تقلعها بلا فاس)، وكذلك (واحد جاي على أرضه لابس بنطلون مكوي وكندرة ملمعه؟). وهي تسخر من العولمة ومؤسساتها فتقول (أيها العولمانيون، لكم دينكم ولي دين)، وتنتقد دور الأمم المتحدة لتصفها (بالهيئة الدولية ممثلة بوكالة الغوث جزاها الله خيرا). وتنتقد أيضا المؤسسات المحلية التابعة لمنظومة العولمة، وتنوه لتعدد مراكز البحث (وما أكثرها ولا حسد). وكذلك تنتقد النظرة الفوقية للنخب وذلك في وصفها لرؤيتهم لهموم المخيمات الفلسطينية (فتفذلك المتفذلكون الذين لم يجربوا طعم العيش في المخيم). وتنعى منظومة المؤسسات الصحية من خلال مقالتها بعنوان (تذاكر مجانية لموت عاجل). وتصف النقاش حول موضوع الإسكان على أنه (ذو شجون وقد توصل صاحبها إلى الجنون).

وتستقي وداد نقدها من المواقف (الساخرة) في الحياة نفسها، وتصف استغلال سائقي السيارات العمومية للركاب في ظل بغياب الرقابة الحكومية، من خلال قولها (عيشوا هالنعمه وارفعوا شعار: اوعى تقوم يا محسوم)، في إشارة للحواجز العسكرية الإسرائيلية المنتشرة عبر البلاد. كما أن هذه الحواجز برأيها (ردت الاعتبار للحمير) وساوت بين أصحاب البدلات الرسمية والفقراء. وفي إطار نقدها لسياسات التشغيل وفي سعيها الدائم للدفاع عن حقوق الطبقة العاملة تذكر ما يلي (ما يزيد الطين بله هو أن ضمائر كثيرة عاطلة عن العمل، ... أهيب بكل أصحاب الخير أن يبحثوا لهذه الضمائر عن فرصة عمل). وفي محاولة الفقراء للحصول على المساعدات العينية التي توزع من قبل مؤسسات عديدة وخصوصا تلك التي توزعها النقابات العمالية لمن لا يستحقون (ما حدا دافع من كيسه، وإشي جاي للكل المحتاج واللي مش محتاج). وفي محاولة للفت النظر لهموم الفلاحين وخصوصا من حيث الانخفاض الشديد في أسعار المنتوجات الزراعية تقول (بطلت توفي مع حدا، مع

الفلاح بتوفي!). وفي سعي لتحقيق درجة أعلى من الصدقية، وفي إطار التواضع (الفلاحي – المتعمق الثقافة) والتذكير بما هو قيم في الحياة، تسخر وداد من نفسها فتقول (أنا وأعوذ بالله من أنا) وكذلك (ليس عيبا ان يكون الإنسان حمار نفسه).

ووداد حميمة في كتاباتها، صادقة في تعبيرها عن الشخوص الذين يرافقونها في مقالاتها، فهي قريبة منهم تعرفهم بالاسم والمكان، فحسن رشيد (الذي يرعى الأرض) من كوبر، ومريم اسحاق (التي ترعى الغنم) من عابود، وأم بلال (التي ترعى حوض النعنع) من مخيم الأمعري. وليس أكثر حميمية من علاقتها مع والدها الذي تذكره وتذكر فضله في مواقع عديدة، فوداد ليست هي إن لم يكن والدها في حياتها، وهو الذي دعم دراستها ووقف إلى جانبها حتى فترة سجنه. وتعترف وداد، بين قلة هذه الأيام يستطيعون الاعتراف بالجميل، بفضل الأخرين عليها، فلم يكون الوالد فقط ، بل كان هناك أيضا (خالتها أم خليل) – الراحلة السيدة سميحة خليل القبج، رئيسة جمعية إنعاش الأسرة، التي قالت لوداد (الجمعية تتعهد لك بذلك، المهم أن لا تتركي الدراسة)، فدعمت دراستها حتى خرج والدها من السجن.

وبالإضافة للصبغة التقدمية - الإنسانية لكتابات وداد، فهي مفعمة بالإحساس الوطني النقي، واهتمام – حتى درجة الأسى – في القضايا الوطنية، فكتبت عن اللاجئين والمخيمات، والمستوطنات، والقدس، وفلسطين ١٩٤٨، والمقاومة. وتعطي وداد للتعريف المتعارف عليه للوطنية أبعادا إضافية تربط من خلالها الخيوط بعضها مع بعض، فالاقتصادي والسياسي والاجتماعي كلها ذات أبعاد وطنية. وتعتبر، مثلا، أن العناية بالأرض هي فعل في قمة الوطنية (اكتشفت أن أبا بسام ... اكثر وطنية منا دون أن يرفع شعارات ...، حوّل الأرض الخراب إلى جنة). كما تنزع في كتابتها للإخلاص للهم الوطني العام، وبتركيز على الهم الفلسطيني المشترك فهي تربط بين (دار الصفدي في مخيم البداوي – لبنان، ودار الصفوري في مخيم اليرموك – سوريا، ودار العمواسي في مخيم البقة الأردن، ودار النبالي في مخيم الجلزون – فلسطين، ودار السوافيري في مخيم جباليا – غزة).

وتبقى وداد الإبنة المخلصة لقريتها، كوبر – محافظة رام الله،حيث ترعرعت وسكنت، فتذكرها في عدة مواقع، وهذا طبيعي ودليل على صفات الإخلاص، فهي جذورية – جوهرية في تربيتها، في ذاكرتها، في قيمها، في صفاتها وفي ممارساتها. ومن المؤكد أن قريتها وأهلها يفتخرون بها أشد افتخار.

يشرفنا أن نضع بين أيديكم هذا المجلد الذي يحوي بعضا من أفكار وشجون الكاتبة والإعلامية والإنسانة الفلسطينية، التي اكتشفنا وبدون فذلكة أو تعقيد، أنها تقدم رؤية تنموية غاية في التعقيد والحنكة ولكن بشكل مبسط يلامس الواقع والحقيقة. تقدم وداد، بتقديري، مقولات نظرية تدفع

باتجاه نظري – تقدمي وإنساني – دون غيره. هذه المشاركة نقدمها لكم جميعا ونعتقد أنها ستشكل سجلا للحالة الفلسطينية، ونقاشا متعمقا لها، لها صفة التاريخ والحاضر والنظرة المستقبلية. نفتخر أن نقدمها لكل فلسطيني، ولكل أخواننا العرب وكمساهمة في النقاش العالمي حول التنمية.

٢٥-أيار-١٩٩٨

أبو بسام "المش متعلم" معلم

كنت وأحد معارفي من الذين انهمكوا وقضوا الكثير من سنوات عمرهم في النضال الوطني وفي سجون الاحتلال نسترجع ذكرى أحد المزارعين النشطاء في القرية وهو المرحوم حسن رشيد والذي توفى قبل عام، وكيف أن هذا المزارع بدأ من الصفر فإذا به بعد بضعة أعوام يصبح من أكبر ملاكي كروم الزيتون في قريتنا "كوبر" ومن أكبر منتجي الزيت. على فكرة يملك هذا الفلاح النشيط بضع مئات من أشجار الزيتون إلى جانب عدد كبير من الأشجار المثمرة الأخرى. وكل ملكه زرعه بيده، لم يرثه عن أب ولا عن جد. قال الصديق: بعد خروجي من السجن في المرة الأخيرة قررت في يوم عطلتي أن أذهب إلى أرضي. ذهبت. وفوجئت بأغراس الزيتون تلتف حول جذعها الأشجار البرية والأشواك. ولم أكن مستعداً للعمل. فلم أحمل معي فأساً ولم ألبس ملابس العمل. فحاولت – من باب رفع العتب – أن اقتلع الأشواك فصرت أضربها بكعب حذائي أو أدقها بحجر. في هذه الأثناء جاءني المرحوم حسن رشيد "أبو بسام". وعلق ساخراً: "اللي بدو يصير جمال لازم يوسع باب دارو" قلت: شو قصدك يا أبو بسام. قال: واحد جاي على أرضه لابس بنطلون مكوي وكندرة ملمعة؟ هيك شغل ما بيصير. حتى النتشة بتصير تضحك عليك وأنت بدك تقلعها بلا فاس.

قلت: أنا مش جاي أشتغل. أنا جاي طلة. لازم أجي يوم أشتغل من الليل لليل. فقال أبو بسام: هذا مش حكي اللي بدو يشتغل. قلت – وأنا أشعر أنه استفزني بسخريته مني: وكيف اللي بدو يشتغل في رأيك. قال: أنت موظف. تستطيع أن تعمل في يوم العطلة أو بعد ساعات الدوام أو في لإجازة فقط. قلت هذا صحيح. قال: سأحضر لك فأساً هدية مني. وتلبس ملابس عمل وتحسب مثلاً. عندك مثلاً ٥٠ غرسة. بوسعك في اليوم الواحد أن تقوم بإنجاز العمل في ١٠ غرسات. تبدأ بعشر غرسات. وتنجز العشر غرسات لا تبدأ في الحادية عشرة ولا تكتف بتسع. لأنك إذا اكتفيت بتسع فربما في المرة القادمة تكتفي بثمان وهكذا يصبح عندك عجز تراكمي وتحس أنك غير قادر على العمل ويصيبك إحباط. وإذا إشتغلت أكثر من عشر غرسات فإنك ستشعر بالتعب فترهق وتضطر إلى تأجيل عملك في اليوم التالي. وربما تحس أن بإمكانك الإنجاز أكثر من الخطة فتركن إلى ذلك وتؤجل العمل بناء على أن لديك رصيداً تركن إليه فيصيبك الغرور. والغرور يفسد العمل والتخطيط. المهم أن تنجز العمل المطلوب ضمن الوقت المحدد ودون إرهاق. بهذا التفسير الذي قدمه لي أبو بسام امتص غضبي واستفزازي. وقلت له: ومنكم نستفيد. وفي قرارة نفسي ازددت احتراماً لهذا الشخص، وكبر في عيني هو الشخص الذي لم يتعلم في المدارس والجامعات، يخطط بهذه البساطة وبهذا النجاح، ويتفوق علينا نحن الذين نتحدث عن الأرض وحب الأرض. اكتشفت أن أبا بسام يحب الأرض أكثر منا وهو في الواقع أكثر وطنية منا دون أن يرفع شعارات الوطنية. حول الأرض الخراب إلى جنة للتين والزيتون وما تشتهي العيون. ولو كنت يا أبا بسام مش متعلم ولكنك معلم.

٢٩-حزيران-١٩٩٨

مريم إسحاق شهيدة التنمية

حين استشهدت مريم إسحاق ابنة قرية عابود خلال الانتفاضة المباركة أذاعت الأخبار خبراً مفاده أن مريم إسحاق دهستها سيارة مستوطن في شارع القرية بينما كانت عائدة بأغنامها من المرعى. ولكثرة الشهداء الذين سقطوا لم نكن نقف كثيراً عند التفاصيل. لكن صديقاً صحفياً من قرية عابود، وفي معرض تعدادنا للشهداء الذين قدمتهم تلك القرية قال: مريم إسحاق شهيدة متميزة. للوهلة الأولى ظننت أنها استشهدت خلال مواجهة مع الجيش أو شيء من هذا القبيل وليس كما جاء في الأخبار. لكنه عقب قائلاً: باستشهاد مريم إسحاق فقدت عابود معلماً اقتصادياً بارزاً في القرية. وأسترسل في الحديث عنها: مشروعها الاقتصادي الذي قام بجهودها أساساً بالإضافة إلى مساعدة من الأسرة واعتمد اقتصاد الأسرة بشكل أساسي على هذا المشروع. وقال الصديق: مريم إسحاق ربت الأغنام. وكان يهمها النوعية. فتنتقي الأغنام التي تعتبرها "زريعة" ويبلغ العدد الثابت عندها أربعين شاة "ولادة". فيما تبيع السخول للتربية وللحم. وتحتفظ بالأمهات وتجددها. أغنامها معروفة في المنطقة. فالأمهات يلدن في المرة الواحدة أربعة توائم أو ثلاثة بالحد الأدنى. لم أصدق في البداية. ولكنني اضطررت في أحد أيام منع التجول للمبيت. حيث لم أستطع العودة إلى قريتي – عند أسرة صديقة في البيره، وفي تلك الليلة شاءت الصدف أن تلد الشاة التي اشتروها من "زريعة" غنم مريم إسحاق. وكانت المفاجأة بالنسبة لي أنها ولدت أربعة توائم. ولم تقف الشهيدة مريم عند هذا الحد. فقد أخذت على عاتقها أن تستغل كل مواسم السنة وكل إمكانات الزراعة لدى الأسرة تزرع الخضار، والأشجار المثمرة تبيع مما تزرع، ومن منتوج أغنامها. لم تتزوج وكأنها نذرت نفسها وأعوامها السبعة وخمسين لأسرتها ولأخوتها. عاشتها منكرة لذاتها وقد آلت على نفساً أن تعمل حتى آخر لحظة من عمرها. في ذلك الوقت كانت بيانات القيادة الموحدة جميعها تتحدث عن الاقتصاد المنزلي، وعن ضرورة الاستغناء عن البضائع الإسرائيلية التي لها بديل وطني. ونشطت المؤسسات وفصائل العمل الوطني، نشط الناس جميعهم واتجهوا لاستصلاح الأراضي، إما من منطلق الالتزام بالموقف الوطني وإما من باب الحاجة. أو من كليهما. نجح البعض بشكل جزئي ولم ينجح الكثيرون أو يستمروا. مريم إسحاق نجحت، وظلت ناجحة طوال حياتها. لأن قناعتها في الاقتصاد المنزلي، بمعنى آخر قناعتها بالعيش اعتماداً على الذات، كانت قناعة أصيلة في نفسها، ولم تكن رد طارئ خلقه جو سياسي معين ولا رد فعل على بطالة أو إغلاق أو أي حدث كان. كانت لديها القدرة على العمل فقررت أن تستثمر هذه القدرة. ويبدو أن مريم الرائحة والغادية بغنماتها، مواظبتها التي تؤكد القدرة على الاستمرار وعلى الفعل المنظم استفزت جيش الاحتلال. فهم لا يريدون أن يكون في هذا الوطن أمثال هذه

المواطنة. إذ كان يمكن لمن يرى مريم في ذهابها وإيابها أن يضبط ساعته على مواعيدها. لذلك دهستها سيارة إسرائيلية، سيارة جندي أو سيارة مستوطن. ليس هذا هو المهم. سقطت مريم بعد سبعة وخمسين عاماً من الكد المتواصل. سبعة وخمسين عاماً من البساطة بنت خلالها اقتصاداً تعتمد عليه أسرة كاملة. ترى هل نتعلم من مريم؟

٣-آب-١٩٩٨

وللشعراء في التنمية رأي

ليلي معي جرحي يسيل على يدي
وتسيل مع جرحي بحارا أدمعي
آه تؤرقني
ألا تدرون سر توجعي؟
قيد يضيق على يدي
وحرارة الصيف التي تزداد من وهج اللهيب بقلبي المتصدع
أو بعد هذا تسألون عن الذي
يغزو ليالينا
يقض مضاجعي
ويقول لي بعض المعزين اصطبر
هي صعبة لكن هناك مؤسسات التنمية
تعطيك بعضاً من غلال العيش فيها
سوف تلقي لقمتك
ثم تعطيك دروساً عن علوم التوعية
صعبة لكن هناك الحل حيث الأرض بور
سوف تزرع في يباب الأرض ما القلب يشاء
ولسوف تصنع من حطام العجز ما يعطي
غذاء أو كساء
فوقفت أسكته وقلت: كفى هراء
أنا لا أصدق أي شيء من هرائك
لم تدع؟
وتقول لي: دعم لنا... هي تنمية
أنا لا أحب الادعاء
يا صاحبي اسمعني قليلاً
أو أجب عن بعض أسئلتي قليلاً
هو موطني...

قل ما الذي يبغيه رهط القادمين لموطني
أو ما الذي تبغيه ما أسميتها بمؤسسات التنمية
كانوا هم الغرباء في وطني
فأصبحت الغريب بلا وطن
كانوا هم الأدران في جسدي فعاشوا
ثم صرنا ميتين بلا كفن
ونموت يومياً كما نمل الطريق
ثم تنكرنا الشوارع والطريق
وبلحظة يتحول القتلى إلى رقم ويضحى القاتلون
هم حماة الأمن والحق الحقيق
ولهم كل الأيادي صفقت
ولهم طوق النجاة
وأنا وحدي الغريق
فأجبني ما الذي تبغيه مني تحت اسم التنمية
هي أوكار وأفخاخ ونحن الطائر السهل
على الذبح على كل الموائد
ما الذي يبغون مني وأنا العبد الفقير
لا تسلني من أنا؟
أنا كل الميتين بلا قبور
أنا كل الحاضرين بلا حضور
أنا كل الخارجين على قرارات النظام العالمي
أنا كل اللاجئين القابضين على
حجارة مجدهم قبض النسور
أنا رافض كل الغزاة
أنا رافض منذ البداية للنهاية
رافض منذ الولادة
وإلى يوم النشور
لا تقل هي تنمية
هي غزو واختراق للصدور

وهي غزو واحتلال للعقول
فلماذا دعم أمريكا هذا لشعب
وهي تغزونا وتأكل لحمنا عرضاً وطول
كيف تدعمنا التي تحمي الفلول
إننا كالطير يا صاح الذي تعطيه قمحاً
كي تسرع ذبحه
أو كما القط الذي تعطيه حتى يتبعك
عظمة أو بعض لحم ثم تعطيه
فيصبح مثل ظلك أينما رحت معك
وبهذا ملكت كل المفاتيح لأبواب العواصم
أصبحت تحكمنا في بيتنا
أصبحت تحصي لنا خطواتنا
أو تلاحقنا تطارد نومنا
ثم تفحصنا ترتب عقلنا أحلامنا
ثم تأخذ بصمة عند الخروج أو الدخول
أصبحت تعرف وقع الخطو من قبل الوصول
أصبحت في عمقنا شرقاً وغرباً
وشمالاً وجنوباً كيفما شاءت تصول وتجول
أخذت تصريحها منا بدعوى التنمية....
يا صديقي وتقول:
لماذا نفترض سوء النوايا؟
لنجرب ما الذي سوف يصير إذ نخوض التجربة
نحن لن نخسر شيئاً ثم تحمينا شرور المسبغة
نحن لسنا أول الناس ولا أخرهم
فلنجرب حظنا في التنمية
فأجبني
ما الذي يبغي الأجانب في بلادي؟
ما الذي يرجوه منا الغرباء
بل اجبني ما الذي يغري الأجانب

ليس من شيء سوى أنا غدونا
في نمو مثلما تنمو الطحالب
وطفيليين صرنا نتلطى من زقاق لزقاق
ونسينا أننا كنا نصفق ذات يوم للعراق
لم نعد نذكر شيئاً عن حليب الطفل في
بغداد أو جوع ونقص الأدوية
ونسينا تحت وهم التنمية
وإلى العمق تفشى سرطان الارتزاق
فلماذا نفترض حسن النوايا
أدعموا الصومال إن شئتم ففيها بالملايين
يعدون الجياع
ادعموا من يبحثون عن فتات الخبز في كوم
القمامة أنقذوهم من ضياع
وكأني بجواب من وراء الأفق يأتي:
ليس في الصومال ما يدعي انتفاضة
فبماذا سنقايض جوعهم
فليجوعوا ما يشاؤون فهم أحرار في الجوع
وفي العري وفي بيع الكرامة
نحن لا نطعم جوعى...
نحن نبني "التنمية"
أصبح العيش نفاقاً بنفاق بنفاق

٩-أيلول-١٩٩٨

أكلة لحوم... عفواً... حقوق البشر

التنمية المخططة لها معيقاتها، والتنمية على البساطة أيضاً لها معيقاتها، وقد تصل هذه المعيقات إلى حد التدمير، لأن هناك الكثيرين من أكلة حقوق البشر/ لا يختلفون عن أكلة لحوم البشر/ يستغلون البساطة أبشع استغلال. ماجد هذا العامل الذي كان جل طموحه أن يستطيع إعالة أسرته المكونة من ١١ نفراً كان يعمل في الورش المختلفة، ذلك أنه لم يحمل أي مؤهل علمي أو مهني، وبقيت الحالة معه كما يقولون "مستورة" إلى أن كشر أكلة حقوق البشر عن أنيابهم أكثر من المعتاد. فما أن انتهى المقاول الذي يعمل معه من بناء العمارة حتى فصله من العمل بعد سنتين ونصف من العمل المستمر دون أية حقوق عمالية تذكر. وبالرغم من أن العامل المذكور قد لجأ إلى القانون لتحصيل حقوقه، إلا أن المقاول كان ذئباً، فأنكر أن ماجد قد عمل معه طيلة هذه المدة. خاصة وأنه لم يترك لدى العامل ما يثبت ذلك لا كرت عمل ولا سجلات ولا شيكات ولا أية تواقيع تذكر قد تفيد العامل في قضيته.

وضغط على العامل الشاهد وهدده ومنعه من الإدلاء بشهادته لصالح ماجد. سلم أمره لله وتناسى الأمر، وبدأ يعمل في ورشة أخرى، وقعت ابنته الصغيرة عن الدرج فكسرت يدها، أخذها إلى المستشفى ولم يكن معه ما يمكن أن يدفعه للمستشفى، ذهب إلى عمله ليأخذ حسابه لذلك الأسبوع أو دفعة تحت الحساب، وهناك صدمته سيارة بقي على أثرها فاقداً للوعي لمدة تزيد على أسبوعين، سببت له الكثير من العطل والأضرار، كان ذلك قبل أربع سنوات، كسور في الرأس ونزيف، وفقدان للذاكرة، وكسور في الفك ورضوض كثيرة عولج في مستشفى هداسا. وعدا عن ذلك فقد واجهت أسرته الأمرين في تأمين مصاريف الذهاب إلى المستشفى والمدارس والجامعات، مما اضطر اثنين من الأبناء لترك المدرسة والبحث عن عمل لإعالة العائلة الكبيرة. كانت قضيته موكلة لمحام لمتابعتها مع المستشفى والشرطة وشركة التأمين الأيام تمر ووضع الأسرة يزداد تردياً وكذلك وضعه الصحي، يتردى، لم يعد بإمكانه العودة إلى العمل. فقد كان يعمل وكانت أوضاعه الاقتصادية سيئة، فكيف يكون الوضع بعد أربع سنوات من التعطل عن العمل. الولدان خسرا دراستهما والمعيشة متطلباتها تزداد يوماً بعد يوم، والديون تراكمت. ولكن بصيصاً من الأمل كان يرى في تعويضات التأمين بدل الضرر والعطل فجأة انطفأ هذا البصيص من الأمل حين ظهرت التقارير التي يمكن على ضوئها تقدير الأضرار والعطل. كانت التقديرات لا تغطي تعطل سنة واحدة فقط من أربع سنوات خصم أكثر من نصف المبلغ نفقات علاج مستشفى هداسا ومنها أتعاب المحاماة، وأما المبلغ المتبقي الذي

سيدفع له فهو لا يساوي عمل شهرين فقط، على اعتبار أنه قد أخذ مبلغاً على سلف متقطعة خلال فترة علاجه في المستشفى. أي أن كل مستحقات هذا الرجل بعد كل ما أصابه من دمار صحي ومعنوي ومادي هي ٢٧٠٠٠ شيكل فقط. ما يغيظ في الأمر هو التقارير المزورة كادعاءاتهم أنه عندما صدمته السيارة كان سكراناً مع العلم أنه كان مسرعاً من أجل أن يأخذ ابنته إلى المستشفى، ولم يكن في جيبه قرش واحد، ولم يشرب طيلة حياته، فكيف كان سكراناً في ذلك الوقت وكيف تصل الوقاحة إلى هذه الدرجة؟ وقاحة في التزوير تصل إلى حد التدمير. هل استغلال بساطة البسطاء الساعين إلى لقمة الحلال، لهم ولأطفالهم يمكن أن يوصل إلى تنمية مهما كانت بساطتها؟

٦-تشرين أول-١٩٩٨

قصيدة بالعامية "حوار بين فقير وصاحب مصنع"

حلم

فقير

بحلم ببيت من المحبة ينبني
ما أشوف حدو قصر أو فيلا لغني
ولا أشوف جنبو خيمة تعصفها الرياح
ولا أشوف بيتي للقصور بينحني
- الله ال خلق هالكون قسمهم فئات
علا ووطا من الولادة للممات
لو كان حلمك في عقل كان الإله
ما قسم الأرزاق بين الكائنات

غني

حلمي أنا عين العقل عين الصواب
ما فيه لبس أو فيه صعوبة أو ضباب
شو فيها لما يكون في الكون البشر
تحصل على الحاجات مأكل مع شراب
- لو صاحب المصنع يسكر مصنعو
الفقير فوراً راح يلاقي مصرعو
ولو جاع ابنه أو عري مرة ومرض
ومرتو بتتحسر وقرشو مش معو

فقير

المصنع ما كان بينبنى لابن الفقير
أو كان غاية صاحبه يرضي الضمير
لو كان بعطي للي شغل مصنعو
حقو ما ببني القصر أو بلبس حرير

لا تخلي أحلامك تعكر ع البشر
صفو الطبيعة هذا من صنع القدر
لابد للتطوير من فقر وغني
يتجمعوا والتفرقة أصل الخطر

غني

التطوير بيتطلب تقدم للأمام
علم وعمل، تصنيع بيعم السلام
التطوير بيتطلب عقول مفتحة
مش شرط تسكن قصر وأسكن في الخيام
- عن أيا حكم بتحكي عن أيا نظام
أحلام يقظة هذي أو حلم المنام
فتح عيونك وارتضي باللي أنكتب
وأرضى بمصيرك حتى لو كان الظلام

فقير

بحكي أنا عن حكم يحكمنا الجميع
يوفر حقوق الأم والطفل الرضيع
يوفر بيوت ال بالوفاء معمرة
ومشيدة بالعز والمجد الرفيع
فيها الملابس للجميع موفرة
وفيها العدالة تظل خضرا كالربيع
فيها الرفاهية لكل شب ومرة
حق العمل فيها لوديعة ولوديع
التعليم فيها مش لبيع ومشترا
ما هو حكر عاللي معو وبيستطيع
فيها الأيادي والعقول محررة
ما فيه قيود وخوف من واقع مريع
وفيها الأمان يعم ع كل القرى
وما فيه سجين يعيش في الوضع الوضيع

٢-تشرين ثاني-١٩٩٨

لا تقرأ إن كنت ممن يشمئزون لهذه المناظر في نفايات الأغنياء أفضل مما في بيوت الفقراء

قد استهجن الأمر لو لم أره مرة ومرات بأم عيني... طفلان يدوران يومياً على حاويات الزبالة.. ينبشانها.. يبحثان ولكن عن ماذا؟

لم أكن اهتم في بادئ الأمر وكنت أظن أن ذلك مجرد فضول... يحضران من أحد المخيمات لرعي الأغنام في جبال رام الله والبيرة، يقطعان مسافة طويلة لذلك كنت أظن أنهما ربما يبحثان في القمامة عن الخبز وبقايا الخضار والفواكه للأغنام... بالأمس القريب وقفت على النافذة انظر إليهما... صعد أكبرهما وقدرت عمره باثنتي أو ثلاثة عشر عاماً – إلى الحاوية... قفز بداخلها وصار يلقي بأكياس القمامة على الأرض إلى أن ألقى بنصف محتوياتها... فيما جلس الأخ الأصغر يفتح أكياس النايلون ويفتش محتوياتها شيئاً فشيئاً... ويقلبها ليرى مدى منفعتها له أو لأسرته. وجد في أحد الأكياس بنطلوناً صغيراً قلبه ونظر إليه. وكأنما ابتهج لهذا الحظ نادى أخاه الذي ما يزال ينبش ما تبقى من قمامة في داخل الحاوية قائلا:-

أنظر ماذا وجدت... وبالبهجة ذاتها طوى البنطلون ودسه في كيس نايلون جلبه خصيصاً لهذا الغرض... ثم عاود عملية النبش والتفتيش.

وجد مظلة ضغط كبسها فانتشرت... كانت شبه سليمة إلا من سلك واحد مقطوع فكانت تبدو عرجاء بعض الشيء... لكنها كانت بالنسبة له شيئاً ذا قيمة... واستمر الأخوان ينبشان وينبشان... كل واحد يحمل في يده كيساً يضم "اللقايا" التي وجدها... انتبها كانت الأغنام قد ابتعدت، ركض أصغرهما خلفها... أوقفها إلى أن يلحق به أخوه، وبعد لحظات كان الكبير قد فرغ من عمله... قفز من الحاوية وركض ليلحق بأخيه وهو يحمل كيسه... وهناك في سفح الجبل جلس الأخوان فوق صخرة يعرض كل منهما ما تكرمت به الحاوية على أبناء الفقراء... وربما يوزعان "هدايا" الحاوية على أخوتهما الصغار والكبار.

أعزائي القراء: قد يشمئز البعض مما كتب أو ينظر باندهاش، وقد يصدقني البعض، وقد لا يصدق البعض الآخر أو يظن أن الأمر مبالغة، وقد ينحى البعض منحى يتجه نحو تفسير ذلك على أنه لا يرجع إلى عوامل الفقر أو العوز وإنما إلى عوامل التربية. لكنني في كل الأحوال أكتب الحقيقة...

وللحقيقة... وعن الحقيقة المرة التي رأيتها بأم عيني... شخصياً وليست على الشاشة... ليست في الصومال ولا في السودان بل في رام الله... هذا المشهد جعلني "أذرف" بعض عبارات التأسي والألم وجعل قلبي يهتز بين الضلوع... في نفس ذلك اليوم وأنا أسير في أحد شوارع رام الله... بينما تسبح هذه الصورة في بحر ذاكرتي فلا ترتفع من العمق إلا لتظهر على السطح ولا تختفي عن السطح إلا لترسو في العمق.

القراء درجات فإن كنت عزيزي القارئ من الذين يشمئزون من منظر "نبش القمامة" فلا تقرأ بحيث لا تؤثر على صحتك الغالية لكن شئت أم أبيت فإن ما هو موجود في نفايات البعض لم يحلم به البعض الآخر في بيوتهم.

٧-كانون أول-١٩٩٨

وراء كل بائع.. قصة

من يهون عليه أن يرى فلذة كبده يجوب الشوارع من شارع لآخر.. من منا يحب أن يرى أبناءه الذين يبذل كل غال ورخيص من أجل أن يعيشوا ويكبروا وهم يتسللون بين عشرات السيارات الذاهبة والآيبة من كل صوب واتجاه.. يقفزون وكأنهم يطاردون الموت والموت يطاردهم.. وما زالت أمام مخيلتي صورة طفل كان يبيع الترمس، يصعد مسرعاً إلى باص وينزل من باص ليلحق بأحد المشترين في حين كان أحد الباصات واقفاً في الكراج.. وربما كانت وقفته غير صحيحة.. صعد إليه بعض الأطفال وكانوا يلعبون فيه.. ولا أحد توقع النتيجة.. مشى الباص إلى الخلف بشكل سريع فذهب ضحية تلك الغلطة بائع الترمس الذي لم يتعد عمره تسع سنوات حيث ضغط رأسه بين الباص وبين جدار الكراج وتطايرت شظايا مخه على الأرض.. وفارق الحياة فوراً. ولا أزال أذكر منظر الطفل ورأسه في كيس نايلون. كلما رأيت طفلاً أتذكر ذلك الطفل... وأخاف على غيره من ذات المصير..

طفل آخر ابتدأت معرفتي به منذ كان عمره ثماني سنوات من سكان رام الله.. كان صغير السن صغير الجسم.. يلاحق المارة بأكياس الترمس الصغيرة وبصوت منخفض خجول يقف أمام الشخص قائلاً: "منشان الله هالبكيت.. منشان الله آخر باكيت" كنت أشتري منه أحياناً ويضجرني إلحاحه أحياناً أخرى حيث أضيق ذرعاً فأنهره وأزجره.. كان يومياً يأتي إلى العمارة التي كنت أعمل بها ويطوف مكاتبها واحدا واحداً.. ويبدو أنه تأثر بزجري له فكان يمر دون أن ينظر إلي.. شعرت بالذنب تجاه هذا الطفل.. ناديته فدخل بعد تردد.. اشتريت منه الترمس.. ودعوته ليشرب الشاي.. سألته ما إذا كان يذهب إلى المدرسة، فقال أنا في المدرسة في الصف الثالث الابتدائي أذهب إلى المدرسة وبعد عودتي تكون أمي قد حضرت الترمس.. أحمله وأذهب إلى البيع فأحصل على مصروفي وأخفف عن أبي.. استغربت من حديثه فكم يمكن أن يحصل من بيع الترمس ليخفف عن أبيه لكنه بدد استغرابي حيث قال أنهم خمسة أخوة وأن والده عامل.. وأخوته الثلاثة الأكبر منه أيضاً يبيعون في الشارع حيث يبيعون الترمس ولكن في شوارع أخرى.. فلكل طفل شوارعه الخاصة وزبائنه. ذات يوم انقطع الطفل عن حضوره إلى العمارة ظننت أن سبباً ما كان وراء هذا الانقطاع.. التقيته في الشارع صدفة سألته عن سبب انقطاعه فقال أن أستاذي يسكن في العمارة وأنا أخجل منه.. قلت له لا داعي من الخجل سأسوي الأمر مع أستاذك.. حضر أجلسته عندي.. وذهبت إلى أستاذه شرحت له أمره فحضر إلى مكان عملي وأشترى منه وقال له لماذا تخجل يا إياد فإنك بدون شك أفضل من الذين يكونون عالات على أبائهم، المهم أن تهتم بدروسك.. وعاد إياد إلى عادته.. صدفته في أحد الأيام لم أعرفه لكنه

عرفني كان يبيع كعك السمسم.. وما أن رآني حتى قال: هي.. الترمس.. تشتري ترمس نظرت إليه.. واعتقدت أنه أخطأ بدل من أن يقول.. كعك قال ترمس.. فقلت أين الترمس؟ قال: كيف حالك؟ ألم تعرفيني؟ أنا إياد.. سلمت عليه وسألته: هل تركت بيع الترمس؟ فقال ضاحكاً: كبرت على بيع الترمس.. بطلت الشغلة توفي. وشرح قصته كيف أنه صار يبيع الكعك على عربة مقابل أجر مقطوع من صاحب العربة.. وقال: لكنني استطعت أن أجمع ثمن العربة واتفقت مع فرن وأصبحت أبيع على حسابي. أما بلال وهو من الذين يبيعون في شوارع رام الله، عمره ١٢ عاماً في الصف الخامس الابتدائي.. ما يختلف به بلال عن إياد أن بلال لا يبيع شيئاً محدداً أي ليس متخصصاً فأحياناً يبيع الترمس وأحياناً ملاقط الغسيل وأحياناً الصحف والكتب والبوظة والعلكة مقابل نسبة مئوية يعطيه إياها صاحب الدكان أو صاحب المكتبة. يسكن بلال أحد مخيمات رام الله قصته تختلف أيضاً.

أمه ميتة منذ أن كان في عامه الأول ربته جدته وعندما بلغ الرابعة من عمره تزوج أبوه ولم تلبث جدته أن توفيت هي الأخرى وأصبح بلال يعيش في كنف أبيه وزوجته التي كانت تعامله معاملة لا تليق بطفل. فقد حنان أمه منذ كان رضيعاً.. أما الأب فقد كانت شخصيته مهزوزة وضعيفة أمام زوجته الجديدة وهذا بالتالي انعكس على علاقته مع ابنه فجافى الأبوة وحلت محلها القسوة استرضاء لزوجته.. هذا التنكر لحق الابن على الأب أخذ يقود الابن شيئاً فشيئاً إلى الشارع خاصة وأنه أصبح له أخوة من أبيه مما أدى إلى تجاهله تجاهلاً تاماً من قبل أبيه وزوجته. بلال بطريقته الخاصة يريد أن يعيش معتمداً على نفسه ليوفر ثمن الدفتر والقلم وبعض اللوازم الخفيفة دون أن يحتاج لمد يده إلى أحد طالباً المساعدة.. البيع أفضل من الشحدة هذا ما كان يؤكده بلال دائماً.. وأنا أتحدث مع بلال.. كان يتردد كثيراً.. لم أعرف سر هذا التردد لكنه طلب مني ألا أذكر أسمه كاملاً.. ورجاني بحرارة لأن أبوه لو عرف بذلك ستكون العاقبة وخيمة.. وعدته بذلك نظر إلي أحد الكراجات وقال.. كنت أحياناً أنام أمام هذا الكراج.. بجانب السور، لا أحد يسأل عني.

بلال هذا الفتى الأسمر النحيف.. طويل القامة.. يظهر من مظهره.. من خوفه أنه واحد من ضحايا الظلم الذي فرضته قلوب لا تعرف الرحمة ومارسته حتى على أعز الناس.. على الابن الذي يضاهي غلاوة والروح.

هذه مشكلة... فهل من حل؟!

ما من شك أن هؤلاء الأطفال الذين نرى منهم يومياً في الشوارع العشرات ينتقلون من زقاق لزقاق ويستريحون لبعض الوقت.. على سور.. في باص. ويمشون عدة كيلومترات بحثاً عن زبون.. ألا يتعبون؟ أليس هذا على حساب دراستهم، لعبهم، رغباتهم؟. باختصار على حساب طفولتهم المؤؤدة. الكتابة في هذا الموضوع ليست جديدة ولكنها تظل إفرازاً لواقع مرير، واقع سياسي، اجتماعي، اقتصادي

يساعد على خلق مثل هذه الأزمات النفسية والأخلاقية والاجتماعية. وقد نرى أحياناً بعض الحلول التي يحاول البعض أن يتمثلها على الورق أو في الخيال. هذه الحلول التي تبدو للوهلة الأولى سليمة ومنطقية لكنها تصبح غير ذلك ومغرقة في المثالية إذا نظرنا لحل مثل هذه المشكلة بمعزل عن الظرف الموضوعي الذي كان الدافع الأساسي وراء هذه الظاهرة.

٤-كانون ثاني-١٩٩٩

ذكريات البيدر

للبيدر حكايات وقصص وله ذكريات جميلة، وللبيدر ماض كما له حاضر، وعن هذه الذكريات كتبت في قصيدة بعنوان "أشواق في الغربة" كتبتها قبل عشرين عاماً بالتمام والكمال:

أشتاق إلى الزرع الأخضر   وأحن إلى القمح على البيدر
أتغزل في العشب النامي   فالأرض تحقق أحلامي
أشتاق وأشواقي تكبر

واحتل البيدر وما يزال مكاناً كبيراً في الذاكرة.. نفتقد هذا المكان اليوم ونتذكره بالحنين لكل ما يعنيه هذا البيدر والموسم بالنسبة لنا. فالبيدر هو مكان اللعب لنا في طفولتنا، وعليه كنا نسهر، وفي موسم الدراس كانت هناك متعة ما بعدها متعة، حين يفرش الزرع قمحاً كان أو شعيراً أو عدساً أو فولاً.. على شكل دائرة تسمى (الطرحة) كان هذا قبل ثلاثين عاماً، ويربط لوح من الحديد بالدابة "حمار أو حصان أو بغل" ويقف الشخص الذي يقوم بعملية "الدراس" على اللوح ويمسك بيده رسن الدابة التي تقوم بدورها بجر اللوح على الطرحة بعد أن يكون اللوح قد شق عدداً من الشقوق بحيث يكون أسفل الشق حاداً ليساعد في تهشيم الزرع اليابس.

وهذه العملية يفترض أن تتم في عز الحر... تلف الدابة واللوح من ورائها على الطرحة يوجهها الشخص الواقف على اللوح، نحن الصغار في حينها كنا نتوسل إلى الشخص ونطلب منه أنه يجلسنا فوق اللوح، يستجيب أحياناً ويرفض في أغلب الأحيان حسب مزاجه، وفي أحيان أخرى "نتعربش" باللوح في غفلة منه، وتستمر عملية الدرس أياماً طويلة، وحين تنتهي العملية ويأتي دور نقل المحصول إلى "الخوابي" الأماكن التي يتم تخزين الغلة فيها.

كنا نحرص ألا تفوتنا هذه اللحظة، فهي التي تنتظرها جيوبنا "وحجورنا" ليملأها صاحب البيدر بحفنة من محصوله، نبيعها ببعض القضامة أو الترمس أو الحامض حلو... ما كان هناك أجمل من هذه اللحظات.

كبرنا وكبر دورنا، فلم أعد تلك الطفلة التي تنتظر حفنة قمح بل أصبحت الفتاة التي تنتظر أن يكون لها دور... وكان دورنا نحن الفتيات قبل ٢٥ عاماً بعد الحصاد هو النقل، فنقوم بنقل الحبوب على رؤوسنا في "مطاحن" منسوجة من القش، وكذلك نقل التبن، أيضاً على رؤوسنا، النساء الكبيرات "الأمهات والجدات" يقمن بالتعبئة فيما نقوم نحن بالنقل.

كل بنات الحارة نجتمع في "عونات" لمن يحتاج إلى هذه العونات، وعادة ما يتم النقل خاصة نقل التبن في الليل، وذلك طمعاً في رقة نسائم الليل، هرباً من الحر، وهرباً من العيون، والطرقات الممتلئة بالمارة أو بالجالسين على هذه الطرقات.

كثيراً ما كنا نتعب أو تلتهب حلوقنا بغبار التبن، كنا نغفو أحيانا ونحن نمشي لكن ما أن ننتهي من النقل أو ننهي ليلتنا تلك بعد منتصف الليل نجتمع في بيت أصحاب البيدر في ذلك اليوم لنتناول العشاء ونشرب الشاي وتبدأ سهرتنا ويذهب التعب عن أجسادنا الفتية، وتوقظنا الأمهات مع الفجر لننقل التبن قبل أن "يطير الندى" وتلسعنا حرارة حزيران وتموز وقبل أن يلحقنا آب اللهاب.

وشيئاً فشيئاً بدأت التكنولوجيا تدخل الزراعة في القرية، وأصبحت هناك ماكنات خاصة تدرس الزرع وتطورت إلى ماكنات تفصل الحب عن التبن، وهذه التكنولوجيا تزامن دخولها مع تراجع التوجه إلى الأرض، وهجرة الكثيرين للحاق بسوق العمل المأجور على حساب الأراضي.

والبيادر نفسها التي كنا نعيش عليها طفولتنا وصبانا تحولت إلى أرض للبناء، وأصبح الدراس يتم في الحقل، والنقل عن طريق السيارات لكن البيدر يبقى حياً في الذاكرة يذكرنا بكل ممثلي وممثلات ذلك الجيل الذين فقدناهم وكأنهم لم يطيقوا البعد عن البيدر ففضلوا الموت عليه.

إنه جيل أمهاتنا وآبائنا وجيل الجدات.

٨-كانون ثاني-١٩٩٩

عيد.. طابور.. دموع

ما لذة العيد إن عيدت في القيد العيد للحر ليس العيد للعبد

الشيء الذي يظل أقوى منا.. أقوى من تمردنا على الواقع هو تحديد موعد العيد، تلك الأعياد التي اعتادت أن تأتينا دائماً على نفس الميعاد بغض النظر عن مدى استعدادنا لاستقبالها، مدى رغبتنا في قدومها في تلك المواعيد ولا يفهم من هذا القول أن أحداً يكره العيد.. بل على العكس فإن الناس يسمون يوم السعد يوم العيد.. ترى فهل العكس أيضاً قائم.. هل يوم العيد هو يوم سعيد؟

ويحضرنا قول الشاعر ونحن نستقبل العيد بأيد مكبلة.. بأرجل مكبلة وشوارع مكبلة.. وكيف يكون العيد مع القيود وأين لذته..؟

في تلك الفترة مر عيد الفطر على قطاع غزة وهو يرزح تحت حظر التجول ليل نهار.. فلا يمكن دخوله ولا يمكن الخروج منه هكذا استقبل المقيمون في غزة أفراح العيد.. تلك الأفراح التي ازدانت لياليها بالشهداء والجرحى.. وازدانت نهاراتها بمختلف أشكال طقوس الحصار.. ترى فهل كانت تلك الأيام بالنسبة لأهل القطاع الذين كانوا إبان ذلك موجودين خارجه.

لنر.. جامعة بيرزيت واحدة من القلاع التي أريد لها ألا تغلق أبوابها حتى في أيام العيد وكأنها تتمرد على الإغلاقات الدائمة بطريقتها الخاصة.. صحيح أن ذلك لم يتم في مبنى الجامعة بالذات بل في أحد المباني التابعة لها. كان على جامعة بيرزيت أن تحتضن طلبة قطاع غزة الذين لم يستطيعوا دخول مدنهم وقراهم ومخيماتهم فبقوا في أحضان الجامعة علها تمنحهم بعض الدفء والحنان الذي يحنو الإنسان للحصول عليه من الناس الذين يحبهم ويحبونه.. فيحكم عليهم أن يقضوا يوم العيد في إجازة قسرية لم يختاروها ولم يحددوا موعدها.. يقضونها في الجامعة.. ولتعويضهم ولو عن جزء يسير من حاجتهم المادية في العيد فقد قام الطلبة بتنظيم ذلك بإرسال الحلوى مع توزيع مبلغ ٥٠ شيكل على كل طالب/ ة غزي.

كانت مجموعات الطلبة تتجمهر أمام الصندوق الذي يقوم بعملية التوزيع وعلى الدرج تصطف طوابير طويلة.. كل ينتظر دوره للحصول على منحة العيد.. الكثيرون منهم ملوا الانتظار. لكن ما العمل كان لابد من ذلك.

طالبة كانت تغادر الطابور لبعض الوقت.. تذرع الممر ذهاباً وإياباً إلى أن تتعب قدماها فتعود لتقف مكانها في الطابور وهكذا دواليك..

التقيت هناك بالصدفة بإحدى الصديقات.. وكانت هذه الصديقة مشتركة بيني وبين طالبة غزية سلمت عليها وتحدثنا بعض الشيء عن أخبار قطاع غزة.. اشتركت معهن في الحديث وهنا وجهت الصديقة سؤالاً للطالبة الغزية: ما الذي تنوون عمله هل البقاء في الجامعة أم ستحاولون الذهاب إلى غزة، ردت الطالبة: لقد حاول الكثير من الطلبة السفر لكنهم لم يتمكنوا وعادوا أدراجهم خائبي الأمل.. فماذا سنفعل ما علينا إلا أن نقف في هذا الطابور الطويل..

تسرح عيناها في الخيال.. تبعدان عنا قليلاً تجولان على الطابور تتفحص الوجوه وجها وجها.. تذرع أرض الممر جيئة وذهاباً ثم تعود من جديد لتقف في الطابور.. تضحك بطريقة هستيرية وتسكت ثم تضحك من جديد.. نظن للوهلة الأولى أن شيئاً قد أثار لديها الفرح. وتقول دون ان نسألها عن سر هذا الفرح:

"لقد اعتدنا الوقوف في الطوابير.. طابور لتوزيع الطحين أمام مباني الوكالة. طابور لشراء المواد الغذائية أثناء السويعات التي يسمح فيها أثناء منع التجول.. وها نحن الآن نقف في الطابور من جديد لاستلام العيدية.. كل حياتنا طوابير في طوابير.. في المدرسة كنا نقف في الطوابير لنستلم الحليب الذي كان شربه إلزامياً في مدارس الوكالة رغم طعمه الكريه.. وفي الجامعة طابور.. وفي..

نضحك على طريقتها المسرحية في الحديث لكننا نشعر بحرج موقفنا ونحن نرى دموعها تنحدر على خديها.. وهنا تذكرت قصيدة الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان "مع لاجئة في العيد".

أختاه أي الذكريات
طغت عليك بفيضها
وتدفقت صوراً تثيرك
في تلاحق نبضها
متى بدى منها سحاب
مظلم في مقلتيك
يهمي دموعاً أو مضت
وترجرجت في وجنتيك
أطرقت واجمة كأنك
صورة الألم الدفين

ملاحظة:-

هذه المادة كتبت في حضرة عيد الفطر ١٩٩٣، وكان لدى الكثيرين بعض الأمل في سلام قادم، في مدريد، في أوسلو في القاهرة.. وصولاً إلى واي بلانتيشن، فهل تغير الحال بعد ست سنوات؟ الجواب لدى الطلبة الغزيين على مدار ستة أفواج تعرفها جامعة بيرزيت قضوا الأعياد الإسلامية والمسيحية بعيدين عن ذويهم.

١٠-ايار-١٩٩٩

في رحيل أم خليل

كلمة وليس رثاء

ليس ما أريد قوله في رحيل الخالة أم خليل كلمة رثاء ولا دمعة، فما قدمته لهذا الوطن يسمو على الرثاء وتخجل منه الدموع، لكنني الآن وبعد خمسة عشر عاماً على تخرجي بدرجة الماجستير في الصحافة وعملي منذ ذلك الحين في المهنة، لابد أن أتذكر الفضل الذي تركته هذه الخالة والذي أسهم في تقرير مصيري بشكل إيجابي. كان ذلك قبل ٢٥ سنة وكنت حينها في الصف الأول الثانوي، حيث اعتقلت سلطات الاحتلال والدي الذي كان المعيل الوحيد للعائلة والمتحمس الوحيد لتعليمي في قرية تعتبر تعليم البنات صرباً من الجنون. فلم يكن في قريتي سوى مدرسة ابتدائية، وما بعد الابتدائي يتطلب السفر إلى المدينة أو السكن فيها. لكن اعتقال والدي والتهديد بإبعاده كان يعني أنني افتقدت الدعم بوجهيه المادي والمعنوي. وعندها ووجهت من أفراد العائلة أن على أن اترك الدراسة وهذه بالنسبة لي كانت مشكلة المشاكل، فأفراد الأسرة غير قادرين على دعمي مادياً، كما أنهم أيضاً لم يدعموني معنوياً من البداية. والحجة هي اعتقال والدي وأنني احتاج على الأقل إلى أجرة السيارة التي توصلني إلى المدرسة. وهكذا قر قرار العائلة على أن أترك الدراسة. بكيت كثيراً وفكرت كثيراً، معرفتي بالعالم قليلة، ولا اعرف لمن أتوجه، لكن اسم الخالة أم خليل كان لامعاً بالنسبة لي ذلك لأنني كنت أمر يومياً من باب جمعية إنعاش الأسرة في طريقي إلى مدرسة بنات البيرة الثانوية فكانت أم خليل أول اسم لمع في ذهني.

كتبت لها رسالة، شرحت لها المشكلة، وما هي إلا أياماً معدودة حتى تلقيت منها رداً تطلب مني أن أقابلها في الجمعية، ذهبت إليها وكانت تلك أول مرة أقابلها شخصياً، سألتني عن المبلغ الذي أحتاجه للمواصلات وقالت لي: "الجمعية تتعهد لك بذلك والمهم أن لا تتركي الدراسة".

وهذا ما كان، ما أن انتهت العطلة الصيفية وابتدأ العام الدراسي حتى بدأت تصرف لي أجور المواصلات في مطلع كل شهر على مدارس سبعة عشر شهراً، وعندما أفرج عن والدي بعد اعتقال دام سنتين طلب مني أن أذهب إليها وأشكرها وأخبرها أنه أفرج عنه وأن توقف هذه المساعدة. وعندما أبلغتها: هنأتني بسلامته وسألتني هل أنت واثقة أنه سيكون قادراً أن يدفع عنك وهو خارج للتو من السجن قلت لها: هو طلب مني أن أحضر إليك وأخبرك.

وها أنا بعد ربع قرن، من ذلك أقر وأعترف أن موقفها هذا قد لعب دوراً في توجيه مسار حياتي، وجاء ليعبئ الفراغ المادي الذي تركه غياب والدي، وربما إلى الأبد وعشت كما عاشت جداتي لا تعليم ولا عمل ولا ثقافة.. فهل يحق لي أن أتذكر كلمة تنمية دون أن أذكر أسمها.

٧-حزيران-١٩٩٩

لو كنت مكان السلطة

قال محدثي وهو شخص مطلع على وضع الكثير من الوزارات وحالة التضخم الوظيفي فيها، الكثير من موظفي السلطة موظفون يشغلون أسماً بلا مسمى كان يعمل مديراً لدائرة غير موجودة، بمعنى آخر أن الكثير من موظفي الوزارات يتقاضون رواتب مقابل وظيفة يقضون معظم وقتها في شرب الشاي والقهوة وطق الحنك مع بعضهم أو مع غيرهم عبر هواتف الوزارة مما يجعل الاتصال بالكثير من الوزارات مطلباً صعب المنال بسبب الخطوط المشغولة "على طول" وهذا بالطبع على حساب فواتير الوزارة.

وقال أيضاً: إن الكثير من الموظفين هم من أبناء القرى الذي يعملون في وزارات وقد تركوا أرضهم خرابا.

وقال كلاماً كثيراً ينم عن قلق كبير، سألته: ما الذي تريد قوله باختصار، فقال: لو كنت في مكان السلطة لعملت كالتالي:-

الموظفون الذين يتقاضون رواتبهم دون أن يقدموا عملاً يذكر وخاصة أبناء القرى منهم أعطيهم نصف رواتبهم أو ثلثي هذا الراتب وأطلب منهم أن يتوجهوا إلى أرضهم وأن يعملوا فيها ويستصلحوها، بذلك أكون قد أعطيتهم هذا الجزء من الراتب ليعتمدوا عليه في بعض الأساسيات، وفي الوقت نفسه أشجعهم على العمل في أرضهم واستثمارها وحمايتها من المصادرة. وكنت في نفس الوقت أحد من ظاهرة البطالة المقنعة التي تشكل عبئاً كبيراً على ظهر السلطة وتثقل كاهلها.

وسأكون وفرت الجزء الذي لا يدفع من رواتبهم واستثمرته في أشياء أهم.

والأهم من ذلك أنني كسلطة وكمواطنين، كشعب وكدولة مستقبلية أكون استفدت تعمير الأرض وحولتها إلى مصدر اقتصادي رئيسي يسهم في تنمية البلد وسد الكثير من حاجات السوق التي تعتمد على المنتج الإسرائيلي الذي يصدر لها "نفايات" إنتاجه في الكثير من الأحوال، يتحكم فينا وفي الأسعار وفي كل شيء، يفرض علينا أن نأكل بندورة مشبعة بالمبيدات، ويفرض علينا بضائعه "المسرطنة" ويحولنا إلى سوق استهلاكي لمنتوجه وإلى مكب نفايات لنفاياته، وإلى حقل تجارب أو إن شئت إلى فئران تجارب.

ثم سكت وقال: كم أود أن أقدم هذا الاقتراح للسلطة الفلسطينية ولكن أخشى ألا أجد من يسمعني من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن مئات الموظفين المرتاحين لهذا الوضع يريدون الحال أن يبقى على

حاله وأن يتقاضوا رواتبهم على "البارد المستريح" هؤلاء سيناصبونني العداء، لأنني كما قلت: لو كنت مكان السلطة على مسمع أي منهم فإنه يحمد لله "ويبوس يده على الوجه والقفا" أنني لست مكان السلطة ولن أكون.

٥-تموز-١٩٩٩

تنمية عَ الناشف

المختصون والخبيرون بالشؤون المائية يزودوننا بمعلومات "تنشف الريق" عدا عن كون الريق ناشفا من شدة العطش في شمال الضفة الغربية وجنوبها ووسطها وكذلك في قطاع غزة. لأن ما تبقى من خارطتنا طولاني الشكل فلا مجال للحديث فيه عن شرق وغرب لأن شرقها وغربها موزعان على الشمال والجنوب والوسط. إذا كل ضفتنا وقطاعنا مصابا بجفاف الحلق والعطش.

فكما أكد خبير في هذا الشأن أن استهلاك مليوني فلسطيني في الضفة الغربية هو ١١٠ مليون متر مكعب في السنة بينما يستهلك ١٢٠ ألف مستوطن ٦٠ مليون متراً مكعباً في الفترة نفسها.

بعملية حسابية بسيطة نجد أن استهلاك الفرد الفلسطيني هو ٥,٥ متر مكعب في السنة بينما استهلاك المستوطن ٥٠ متر مكعب، أي عشرة أضعاف ما يستهلكه الفلسطيني تقريباً.

إحصائيات مجموعة الهيدرولوجيين تشير إلى أن ٣٦٪ من الينابيع ستجف هذا العام وأن نسبة الملوحة في المياه في جنوب قطاع غزة عالية جداً مما يجعلها غير صالحة للشرب والزراعة.

وهذا الوضع يجعل ضفتنا وقطاعنا اللذين يكادان يموتان عطشاً تحت رحمة شركة مكروت الإسرائيلية. وشركة مكروت لا رحمة بقلبها، فالبرغم من أن الاتفاقات بكل إجحافها تنص على إلزام إسرائيل بضخ ٦٥٠ متراً مكعباً في الساعة لمنطقة الخليل إلا أن هذه الكمية ظلت تتعرض لخصم من هنا وخفض من هناك حتى وصلت إلى ٢٥٠ متراً مكعباً أي أكثر من الثلث بقليل فقط. وفي قرى شمال غرب القدس نصت الاتفاقات على ضخ ٧٠ متراً مكعباً في الساعة لكن التخفيض وصل ٢٠ متراً مكعباً أي اقل من الربع بقليل.

هذا التحكم الإسرائيلي بقطرة الماء التي يمكن أن تحمي إنساناً من الموت لا يريد الإسرائيليون أن "ينعموا" على الفلسطينيين بها. وليمت الفلسطينيون، ولتمت مزروعاتهم ومزارعهم.

لدى مرورنا من أمام إحدى المستوطنات الحديثة وإمعان النظر بزهور حدائقها المروية، الريانة النضرة، علق أحد الأشخاص " أنهم يستحقون الحياة أما شعبنا..." قلت له: "هذه المفاهيم التي غرسوها فينا واستدخلناها وبدأنا نبثها دون أن نحسب كم كلفنا ثمنها هي جزء أساسي من نظرية الاحتلال وتطبيقاتها.."وتحدثت عن كمية المياه التي تصرف على هذه الزهور حتى تبدو نضرة بهذا المنظر وتدخل إلى عقولنا مفهوماً خالصاً مخلصاً يوحي بضعفنا وهشاشتنا، هذه الكميات الكبيرة من المياه التي تسكب بدون حساب تسكب على حساب عدد من القرى العطشى...

وفي المحصلة يقنعوننا "أنهم الأنظف والأجدر بالحياة لأنهم يسقون زهورهم بجرعة الماء التي يمنعونها عن أطفالنا" كيف يمكن أن نتطور وننمو؟ هكذا ع الناشف؟

٩-آب-١٩٩٩

ديموقراطية الثقافة.. ديموقراطية التنمية

بدون ثقافة لا توجد تنمية، وبدون تنمية لا تنهض ثقافة. تلك حقيقة لا يختلف عليها اثنان، لكن الحقيقة الأكثر رسوخاً بين كل الحقائق، أنه بدون ديموقراطية لن تكون تنمية ولن توجد ثقافة اللهم إلا إذا كانت ثقافة مطموسة مقموعة، كما هو حال الكثيرين من مثقفينا العرب الذين لم "تتسع" أرض بلادهم على رحابتها لثقافتهم، وضاقت بهم تلك البلاد حتى عاشوا في المنافي.

إن لم يكن لحماية الكلمة والثقافة فهو لحماية النفس من الفتك أو السجن بسبب هذه الثقافة.

وكم من شاعر أو كاتب وصل الأمر به لأن يكون مطلوباً لسيف "العدالة" في بلده وممنوعاً من دخول بلد آخر، وغير مرغوب فيه في بلد ثالث...

وعرفت ثقافتنا العربية شاعراً مثل عبد الله البردوني الشاعر اليمني الكفيف الذي كان يدخل السجن بسبب قصيدة أو بسبب قفشة من قفشاته الشعرية.

بعد أن أفرج عنه من إحدى سجناته أرسل قصيدة للصحافة وقيل له أنها ستنشر غداً، فحمل بطانيته واتجه إلى باب السجن بنفسه، ولما سألوه عن السبب قال: في الصباح تكون الصحافة قد نشرت لي قصيدة، فأردت أن أوفر عليكم عناء البحث عني واعتقالي، جئتكم بنفسي.

الثقافة تعبير عن الحالة التنموية التي تعيشها أي دولة أو أي مجتمع، المهم إطلاق حريات التعبير، فالمثقف شاعراً كان أم روائياً أم رساماً، أم مسرحياً...الخ يتخذ من شكله التعبيري الذي يختاره شكلاً للنقد أو الاحتجاج، وغالباً ما يكون بشكل مبكر مقارنة بحركة السياسي.

فالبردوني الذي كتب فظيع جهل ما يجري انتقد بأبيات بسيطة التبعية الاقتصادية في اليمن حين قال:

فظيع جهل ما يجري
وأفظع منه أن تدري
وهل تدرين يا صنعا
من المستعمر السري
غزاة لا أشاهدهم
وسيف الغزو في صدري
فقد يأتون تبغا في
سجائر لونها يغري
وفي صدقات وحشي
يؤنسن وجهه الصخري

إلى آخر القصيدة التي يعدد فيها أشكال التبعية والتي يطالب بالفكاك منها... قصيدته هذه ثقافة تنموية.

وأيضاً ثقافة بيرم التونسي كانت تنموية حين كتب قصيدته النقدية للمجلس البلدي وانتشرت بكل ما فيها من خفة وطرافة.

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي
كأن أمي بل الله تربتها
أوصت وقالت أخوك المجلس البلدي
أخشى الزواج إذا يوم الزفاف دنا
أن ينبري لعروسي المجلس البلدي
أخاف إن وهب الرحمن لي ولداً
في بطنها يدعيه المجلس البلدي

إذن كان المثقف يعيش حالة من القمع. وفي المحصلة ينتهي القمع في زمن ما، لكن الثقافة تبقى المؤرخ الوحيد والشاهد للأجيال المقبلة على هذا القمع.

فقد أعدم الإنجليز الشاعر نوح إبراهيم (شاعر ثورة أل ٣٦) لكن أشعاره بقيت على جدران الزنزانة تغنيها الأجيال مثلاً بينما انتهى الاستعمار الإنجليزي الذي أعدم الشاعر؟

لا يعني ذلك أن القمع قد ينهي الثقافة، ولكن قد يغير مسارها أو يشغلها في مواجهة هذا القمع عن أشياء جديد، عن السير قدماً للأمام في طريق البحث واستكشاف الجديد.

أما إذا سادت الديموقراطية حياة المثقف وحياة الشعب فإنه حتما تكون هناك حرية العمل، حرية التنقل، حرة الحركة، حرية الإطلاع، حرية الكلمة، حرية الرأي، حرية القلم، وبالتالي التنمية، وتعدد الخيارات أمام الفرد. وأصبح لدينا تنمية ثقافية وثقافة تنموية وقبل كل شيء ديموقراطية الثقافة وديموقراطية التنمية.

٦-أيلول-١٩٩٩

الأطفال زينة الحياة لا وقود نارها

في العطلة الصيفية اصطدمت بطلب طفلي الذي بلغ الحادية عشرة من عمره بالسماح له بالبحث عن عمل. طلب مني وبإلحاح، صدمتي كانت أنني أنا التي اعتبر نفسي من الحريصين جداً على حقوق الإنسان عامة وحقوق الأطفال خاصة أن يطلب مني خرق هذا الحرص مع طفلي. لكنه كان يقول لي أن فلانا يعمل وهو في صفي، وفلانا يعمل وهو أصغر مني وفلانا كان يعمل وهو في عمري لماذا سمح لهم أهلهم بالعمل. حاولت أن أبسط وجهة نظري لطفلي حتى أسكته، وأمام إصراره اقترحت عليه أن يقوم ببعض الأعمال في البيت مقابل أجرة أدفعها له بعد عودتي من العمل، كمسح الغبار، ترتيب المكتبة وبعض أعمال التنظيف في البيت.

بدأ سعيداً في البداية، ثم لم يعد يطلب مني أن يعمل لا في البيت ولا في خارجه، وأنا لم أسأله لماذا. فقد كان واضحاً أن الأطفال لا جلد لديهم على العمل في وقت هم يحتاجون فيه إلي اللعب والالتقاء بالأصدقاء ومشاهدة التلفزيون. لكن الصدمة الأكبر في هذا المجال كانت نتائج إحصاءات دائرة الإحصاء المركزي الفلسطينية الخاصة بمسح عمل وأنشطة الأطفال في الفترة الواقعة بين ١٠/١١/١٩٩٨ إلى ٧/١/١٩٩٩ والتي كانت تشير إلى أن ٦٣٦٠٠ طفل فلسطيني يعملون في سوق العمل، وأن ثلثي هؤلاء الأطفال يعملون بدافع الحاجة المادية لرفع مستوى دخل الأسرة. وأشارت الإحصاءات إلى أن هذا العدد يساوي ٦,٢٪ من مجموع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٥ – ١٧ عاماً، وأن ٤٥,٤٪ منهم غير ملتحقين بالدراسة.

وهذا يعني أن إحصاء مشابهاً في فترة العطلة الصيفية حتماً ستكون نتائجه أعلى بكثير من الإحصاء المذكور.

الأطفال هذه المخلوقات الجميلة الصغيرة، التي وصفها الله بأنها زينة الحياة الدنيا تستنزفها الحاجة المادية وتغرقها في مجاهل الجهل والأمية والفقر، يتعرضون للخطر والاستغلال من قبل مستخدميهم فقد أشار تقرير الإحصاء أن ٣٠٪ من الأطفال العاملين يعملون في أعمال خطرة، وأن ٧١٪ منهم لا يستخدمون أدوات واقية. أصحاب العمل من جهتهم يستغلون حاجة هؤلاء الأطفال وأسرهم، يستغلون جهلهم بحقوق العامل وبقانون العمل، يستغلون ضعفهم ويشغلونهم في ظروف عمل خطرة وبأجور متدنية إذ أن نصف الأطفال العاملين في قطاع غزة لا تتعدى أجورهم اليومية أربعة دولارات فقط. علم الاجتماع من جانبه يرى أن ظاهرة تشغيل الأطفال تعتبر تشجيعاً لاستغلالهم ولانتشار الجريمة والانحرافات وتترتب عليه أثار صحية خطيرة ولعل الحريق الذي شب في إحدى

شقق أبراج غزة في الآونة الأخيرة والذي كشفت الشرطة ملابساته لاحقا يعتبر مؤشراً خطيراً لهذه الظاهرة. إذ أن الذي قام بعملية الحريق للتغطية على سرقة النقود والمجوهرات هو طفل في السادسة عشرة من عمره وكان قد خطط للعملية منذ سنتين أي عندما كان عمره ١٤ عاماً حين كان يعمل في نفس البرج.

ظاهرة تستحق من كافة الجهات أن تضاعف جهودها للحيلولة دون تفاقمها. نحن مع تنمية يكون الأطفال عنصراً مستفيداً منها حتى يصبحوا عنصراً مفيداً وفاعلاً فيها. لا مع "تنمية" يشعلها الفقر، وأطفال الفقراء وقودها.

٤- تشرين اول -١٩٩٩

من شرب من بير ما بيرمي فيه حجر
(المسنون الفلسطينيون)

ما زلت اذكر احد نوادي المسنين التي دخلتها ذات مرة في مهمة صحفية، وعلمت أن هذا البيت يقدم وجبة ساخنة يوما في الأسبوع لمسنين ومسنات يأتون إلى هذا البيت - بيت تديره وتشرف عليه إحدى الجمعيات النسائية في جنوب الضفة الغربية. وقد بادرت هذه الجمعية لإنشاء هذا النادي. وذكرت إحدى المسؤولات أن حالة الفقر والحاجة التي يعاني منها الكثيرون من المسنين هي التي ولدت هذه الفكرة في محاولة للتخفيف عنهم ولو معنويا. هناك في مدخل النادي كانت إحدى المسنات تحمل صحن وجبتها الساخنة تلك إلى الفناء لتبردها في الهواء. وكان الطقس باردا جدا في ذلك اليوم من أيام الشتاء.

كانت المرأة ترتجف من البرد ومع ذلك كان واضحا أنها جائعة وأن الجوع أقوى من البرد، إلى درجة لم تحتمل معها الانتظار لدقيقة أو دقيقتين في الداخل ريثما يبرد الصحن. وما أن رأتني أدخل حتى ارتبكت وأحست بالخجل، فقبل أن أسألها قالت: أريد أن أبرده، ارتباكها وجوعها أشعرني بالخجل منها ومن نفسي وتخيلتها أمي أو جدتي أو إحدى قريباتي.

في كل البلاد توجد بيوت للمسنين والمسنات، لكن النظرة لهذه البيوت هي المختلفة من مجتمع إلى آخر. ففي حين في مجتمعات كثيرة من بينها مجتمعنا ينظرون إلى بيوت المسنين على أنها البيت الذي يأوي المسن في حالة لم يكن هناك أحد مستعد للعناية به وبالتالي يجد هؤلاء في بيوت المسنين مكانا يلجأون إليه مقابل مبلغ يجري دفعه للملجأ أو إذا وجدوا طريقة لإدخاله إلى الملجأ دون أن يدفعوا القسط المذكور فلا مانع لديهم.

المهم أن يقضي البقية الباقية من حياته دون أن تثقل العناية به كاهلهم. وكأن هذا الإنسان المسن لم يكن في يوم من الأيام قادرا ومعطاء.

لكن الحال يختلف في البلدان المتطورة التي يجد فيها الإنسان احترامه مهما كان عمره. فتلك بيوت للنقاهة. أو نواد لا يجد الإنسان غضاضة من الإقامة فيها، ترعاها الحكومات وتزودها بكافة وسائل الراحة بحيث يذهب إليها الشخص بنفسه وبرضاه دون أن يشعر أنه عبء على أحد ودون أن يشعر أحد بالضيق منه. وربما تبدأ بالنسبة للكثيرين في هذه البيوت حياة جديدة هي حياة الشيخوخة. بمعنى أن الفرد في هذا البيت يبني صداقات ويعتاد على أناس في مثل عمره لهم تجارب شبيهة ولهم

القدرة على الاستماع لتجارب بعضهم البعض.

ويجدون متعة في عرض هذه التجارب ولذة في هذه الصداقات. الكثيرون منهم يجدون في البيت ناديا يغذون فيه مواهبهم الفنية أو الأدبية. هناك يشعرون أن لهم قيمة تتجدد مع تقدم العمر، ويدركون أنهم قدموا الكثير لهذه الحياة ولمجتمعاتهم وأسرهم وبالتالي هم يأخذون استحقاقاتهم لما قدموه. يزورون ويزارون، فالملجأ أو النادي هو البيت الثاني أو البيت الجديد للمسن يدخله إذا شاء مختارا ويغادره إذا شاء مختارا.

وإذا كان وضعه الصحي سيئا تجد هناك من يرعاه ويقدم له العلاج والغذاء ووسائل الراحة والنظافة. ومن هنا لا يشعر المقيم في هذا البيت بالخجل أو الغضاضة من هذه الإقامة. فيما يحصل العكس في مجتمعاتنا. فالابن يحاول أن يخفي عن الناس أن أباه أو أمه مقيم/ة في ملجأ للعجزة كما يحلو للناس أن يسموه "وهو كذلك في واقع الأمر في مجتمعنا" فلا أحد يذهب إليه ماشيا طائعا، بل يذهبون إلى هناك محمولين مسلوبي الإرادة. يشعرون بالخذلان لتخلي أبنائهم عنهم في اللحظات العصيبة. وهم الذين لم يتخلوا عن أبنائهم لا في حلو اللحظات ولا في مرها يذهبون صاغرين مستسلمين وقد فقدوا الأمل والسند وليس أمامهم إلا انتظار الموت. وقلما يزورهم ذووهم اؤلئك الذين أكلوهم لحما ورموهم عظما. وينتظرون هم أيضا موتهم للتخلص من الأقساط التي يدفعونها ومن خجلهم من عار تخليهم عن آبائهم وأمهاتهم. وكثيرا ما نجد النساء المسنات يرسلن إلى هذه البيوت وحجة الابن أن زوجته غير قادرة على خدمة أمه، وكأن خدمة أمه مطلوبة من زوجته أما هو الرجل فإن خدمته لأمه أو لأبيه تنتقص من رجولته. وكأن الله سبحانه ونبيه الكريم لم يوصيا "بالوالدين إحسانا" ولم يوصيا في الآية الكريمة "فإما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما" صدق الله العظيم.

المثل قال: "اللي بيشرب من بير ما بيرمي فيه حجر" فكيف إذا كان هذا "البئر" أمنا وأبانا الذي وهبنا حياة مملوءة بالعطاء.

أرجو ألا يفهم من الأمر هنا أن القصد من ذلك هو المس ببيوت المسنين، ولكن المقصود في الأمر هو حث أولي الأمر للاهتمام بهذه البيوت لتصل إلى معناها الحقيقي وتتحول إلى نواد يرتادها المسنون ويجدون فيها راحتهم وسلواهم عند كبرهم لا أن تبقى معازل ينتظرون فيها دنو أجلهم.

١-تشرين ثاني-١٩٩٩

التعليم بالمقايضة على بوابة الألفية الثالثة

قبل أيام نشرت الصحافة العربية عن التعليم بالمقايضة في حاصبيا إحدى القرى اللبنانية، قصة أحد الآباء الذي عجز عن دفع أقساط أبنائه في المدارس فحمل أربع تنكات زيت وتوجه بها إلى إدارة المدرسة وطلب منها أن تقبل الزيت بدلا من الأقساط لأنه لو وجد من يشتري محصوله من الزيت والمنتوجات الزراعية الأخرى لتمكن من دفع الأقساط نقدا.

وقال فلاحون آخرون من القرية نفسها أنهم سيحذون حذو هذا الرجل وسيحملون البصل والفول والعدس إلى المدارس.

خطوة كهذه يمكن أن تفهم الرسالة الاحتجاجية من ورائها ببساطة، إذا كان القصد منها هو الاحتجاج والرسالة الأبسط من ذلك هي دفع الأقساط والسلام واضحة تماما. هذه التظاهرة الرمزية الصغيرة خطوة ممتازة. الفقر يوصلنا إلى التعليم بالمقايضة. يعيد إلى أذهاننا عصر التلمذة على أيدي شيوخ الكتاتيب، حين كان الطالب يدفع لمعلمه الشيخ بيضة ورغيفا أو دجاجة أو أرنبا. كلها حالات بقديمها وحديثها لا مدلول لها سوى الرغبة "العارمة" في تلقي العلم. ولا غضاضة في ذلك أيام الكتاتيب، ولكن الغضاضة في ذلك أنه يجري في عالمنا العربي ونحن والعالم نطرق بقوة أبواب الألفية الثالثة.

هذه مسألة تثير القلق. لكن ما يقلق أكثر - ودعوني أقول أنني قلقة جدا - هو مصير الفلاح الفلسطيني، الذي تنهشه كل أنواع الذئاب. فحتى إذا أراد أن يقايض مقابل التعليم أو مقابل العلاج أو مقابل الطعام فهل يملك ما يقايض به من نتاج أرضه. فها نحن الآن في نهاية شهر تشرين أول، أي الوقت الذي اعتدنا عليه أن يكون عز موسم الزيتون، ولا زيتون. هذا الموسم الذي كان الفلاح ينتظره ويعد العدة له طيلة أيام السنة، لكنه الآن يمر مرورا لا يشبه حتى مرور الكرام. وكأنه ليس تشرين الذي نعرفه.

ومع ذلك لابد من الذهاب إلى الزيتون إما رفعا للعتب واللوم وإما بحثا عن بعض حبات الزيتون لنحلف للعالمين أننا تذوقنا طعم الزيت الجديد.

وهناك وأنت تقف على أعلى الشجرة تنظر على مد البصر فترى مساحات واسعة شاسعة قد غطتها الأشواك والأشجار البرية احتجاجا على هجر المحاريث لها، فالأرض أهملت أشد الإهمال، إنحباس الأمطار زاد الطين بله، وكذلك انشغال الناس في العمل المأجور وحياة الاستهلاك اليومي التي غدت

تستهلك القرش والقوت والأرض والإنسان.

العلاقة اليومية مع السوق أصبحت هدفاً يستنزف القوى والطاقات أولاً بأول. عمل اليوم لقوت اليوم نفسه. وهذا الوضع استنزف الكثير من العلاقات الإنسانية بين البشر وغير الكثير من القيم.

ما يثير القلق أكثر أن كل ذلك لا يقف على أرضية صلبة بل نحن جميعاً نقف على أرض رملية متحركة، نعتمد على أسواق عدونا المبنية على احتياجاته لا احتياجاتنا، فإذا كف عن احتياجه للأيدي العاملة، انهارت الأرض الرملية التي نقف عليها، وإذا أغلقت أسواقه وجدنا أنفسنا جائعين، فلا أسسنا لصناعة تقينا شر هذا الانهيار، ولا نحن أبقينا على الأرض صالحة للزراعة. وارتحنا دون أن نعلن عن هذا الارتياح أو نعترف به لهذا التخريب المبرمج الذي لجأ إليه محتلونا وكنا نحن الأدوات لهذا التخريب. ولا اقصد هنا تحميل الفلاح الفلسطيني عبء هذا التخريب، لكنه مسؤولية الفلاح والمثقف والتاجر المصدر والمستورد، مسؤولية السوق والحركة الوطنية، مسؤولية السلطة والمؤسسات، مسؤولية رأس المال ومسؤولية اليد العاملة. الاحتلال خرب ونحن جميعاً كنا الأداة الطيعة السهلة الاستخدام. فهل نملك ما نقايض به من أجل التعليم؟

٦-كانون أول-١٩٩٩

عولمة نعم.. ولكن انحلال وانتحار.. لماذا؟

اختلف المختلفون واتفق المتفقون على تفسير مصطلح "العولمة" الذي بدأ يغزو عالمنا وثقافتنا في السنوات الأخيرة. وتدور معه الكثير من الرؤوس ويفخر باستخدامه من يفخرون بتلقي أي غزو ثقافي يغزو ثقافتهم. فيفسر البعض العولمة بأنها ثورة تكنولوجية في عالم الاتصال، ويراها البعض الآخر ثورة في تقنية الإعلان التجاري والصناعي وطريقة سريعة، في الترويج، وبفضلها استطاع البعض استقدام خادماتهم من سيريلانكا وعمالهم وعاملاتهم من الفلبين، وبفضلها علت قيمة المنتوج الذي يمتلك صاحبه هذه التقنية "العولماتية" الجديدة. وابتعد بعض العولمانيين في هذا العالم إلى حد اعتبارها دينا جديدا كما عبر عن ذلك الباحث في منظمة "أندا" في تونس مايكل كراكنال في محاضرة باللغة الإنجليزية: الدين الجديد هو العولمة، أركان هذا الدين ثلاثة هي: البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، منظمة التجارة العالمية، أما إلهها فهو المال. وخلص باستنتاج أن العولمة ليست فاسدة جداً كنظرية لكنها فاسدة في التطبيق فهي تهدد سيادة الأمم وتناقض الديموقراطية. العولمة فتحت المجال للمنافسة "الحرة" بمعنى أن القوي يأكل الضعيف. ففي تقرير بعنوان المسح العالمي لعام ١٩٩٩ عن دور المرأة في التنمية العولمة والمساواة بين الجنسين والعمل صدرت في ٢١/١٠ الماضي عن دراسة جديدة صادرة عن الأمم المتحدة جاءت جملة من الآثار السلبية للعولمة على المرأة أهمها:

- أن المرأة في كوريا خسرت عددا من الأعمال ضعف عدد التي خسرها الرجال.
- ارتفاع نسبة البطالة والفقر في المناطق الحضرية في آسيا وامتداده إلى المناطق الريفية "والأسر الريفية" أصبحت معدمة في تايلند والفلبين واندونيسيا وتحولت نساؤها إلى العمل في الدعارة.
- ازدياد الضغوط النفسية فارتفعت معدلات الانتحار.
- وجود حالات خطيرة من سوء التغذية في جاوة.
- تسرب نصف مليون تلميذ من مقاعد الدراسة الابتدائية والثانوية في تايلند.

كثيرة من النتائج السلبية لم تفلح محاولات التجميل التي تجري في كل يوم على العولمة أن تخفف من حدتها. وإن جرى الحديث عن أية نتيجة إيجابية لا يمكن القفز على جملة النتائج السلبية.

هي ثورة في تقنية الاتصال قد لا نختلف على ذلك، لكنها ثورة وانقلاب يستفيد منه من يملك وسيلة هذا الانقلاب، أما من لا يملك هذه الوسيلة فهو يتراجع إلى قاع قائمة المستفيدين إن صح التعبير،

ولكن التعبير الواضح أنه في رأس قائمة الخاسرين مادياً ومعنوياً فهو بالنسبة له يعاني من الفقر ومن الجوع والبطالة وتحول المال إلى المعيار القيمي بعد أن كان الوسيلة للعيش.

أما على مستوى العالم فيصل التقرير إلى جملة من الحقائق أهمها: أن المرأة التحقت بعمل مدفوع الأجر بأعداد متزايدة على مستوى العقدين الماضيين وكان ذلك عادة في ظروف أقل مستوى من الظروف التي يعمل فيه الرجال وانتشرت العمالة غير الثابتة كالعمل في القطاع غير الرسمي أو العمل في المنازل، أو العمل من المنازل. زادت الفجوة بين متطلبات الرعاية للأسرة والحماية الاجتماعية. وأخيراً حسب التقرير إذا كانت العولمة قد خلقت فرصاً جديدة للمرأة فإنها أيضاً أوجدت ظروفاً تضر بالمساواة بين الجنسين.أيها العولمانيون: "لكم دينكم ولي دين".

٥-كانون ثاني-٢٠٠٠

العلم أبعد من الخيال.. والظلم أيضا

هكذا وببساطة أصبح الجميع يرددون وبشكل يكاد يكون ببغاويا أن العالم الجديد قد تحول إلى قرية صغيرة بفضل الثورة المعلوماتية، ونكاد نصدق هذه المعلومة ونحن نجلس أمام حاسوباتنا ننتقل من موقع إلى آخر، وندخل بلدا ونخرج من بلد آخر، تطوف القارات، ونطلع على كل شيء في العالم، لكننا نقف أمام حقيقة مرة تشعرنا نحن الفلسطينيين أننا نقف أما أكذوبة كبيرة اسمها العالم "قرية صغيرة" ولنجد أنفسنا حيال حالة من العجز الكبير حين يفكر واحد منا من الضفة الغربية أن يذهب إلى غزة ليقضي حاجة أو يزور صديقا أو قريبا أو حبيبا، لأنه يحتاج إلى إجراءات طويلة لها أول وليس لها آخر، تصريح، بطاقة ممغنطة، معبر آمن تتوفر فيه كل سمات المعابر باستثناء سمتين أساسيتين هما "إمكانية العبور والأمن" بغض النظر كان الحديث يتعلق بمعبر ترقوميا "العتيد" باعتباره آخر إنجاز تحقق في مجال "العبور" أو تعلق الأمر بحاجز إيرز.

بمنتهى البساطة نجد حقيقة العلاقة بين الضفة الغربية وقطاع غزة تشكل النفي التام لكون العالم قرية صغيرة، فنحن أمام جزء صغير من فلسطين تغلق في وجه أهله أبواب الأجزاء الأخرى، ضفة، قطاع،١٩٤٨، منطقة أ ،منطقة ب، ومنطقة ج. وغير ذلك من المسميات، مدينة الخليل هذه المدينة الصغيرة قياساً بالمدن العالمية تصبح مجزأة إلي أربع مدن، فهل نصدق أننا في عالم تحول إلى قرية صغيرة.

أجلس أمام حاسوبي، وأدخل إلى مواقع الإنترنت، أقرأ صحيفة من الخليج و أدخل وكالة أنباء يابانية، من مزرعة للنعام في الإمارات المتحدة إلى صوت بريطانيا العظمي، لكنني لا أستطيع الوصول إلى القدس إلا أن أتلفت يمنة ويسرة، شمالا وجنوبا حتى أتأكد من أن حاجزا للتفتيش ليس موجودا بشكل كمين على طريق رام الله- عناتا - القدس، باعتبارها واحدة من الطرق الثلاثة المحتملة للوصول لعروس عروبتنا. فهل ما يقوله الحاسوب حقيقة؟ أم انه أشبه ما يكون "بصندوق العجب" الذي كان آباؤنا يرون من فتحته حوارا بين اليهودي والعربي ينتهي بانتصار العربي، فتسكرهم نشوة الانتصار المزعوم حتى اصطدموا بالهزيمة تلو الهزيمة،١٩٤٨، ١٩٦٧ ...الخ.

العالم قرية صغيرة هذه حقيقة، لكن هذه القرية صغيرة لمن يمتلك حرية العبور والتنقل، صغيرة لمن يمتلك إمكانية التصدير والاستيراد، صغيرة لمن يمتلك القدرة على العيش دون خوف من الاغتيال، صغيرة لمن أرضه لم تصادر وغير مهددة بالمصادرة.

فهل هي صغيرة بالنسبة لنا؟ هل هي صغيرة لمن هدمت بيوتهم وسكنوا الباصات لعل حديدها أو ما تبقى من حديدها المهترىء يقيهم القيظ والبرد.؟

ماذا يقول الطلبة الغزيون في جامعات الضفة عن هذه القرية الصغيرة، بضع عشرات من الكيلومترات تفصلهم عن ذويهم في مدنهم وقراهم في قطاع غزة، لكنها في زمن الثورة المعلوماتية تحول الوصول إلى بيوتهم إلى رحلة أشبه ما تكون برحلة الكشوف الجغرافية قبل مائتي عام، رحلة غير مضمونة العواقب، هل يصلون ام لا يصلون؟ ماذا يقول عن العالم "القرية الصغيرة" العمال الغزيون الذين اضطرتهم ظروف العمل للإقامة في مخيم الأمعري وانقطعوا منذ بضعة أعوام عن ذويهم؟

ماذا يقول عن ذلك الطالب الذي جاء من رفح ليدرس في جامعة بيرزيت قبل أن يكمل العشرين، ودرس وتخرج وتوظف وتزوج وأنجب في الضفة الغربية دون أن يتمكن من وصول أهله؟

ها نحن ندخل الألفية الثالثة، ووصل العلم إلى ما هو أبعد من الخيال، لكن الظلم أيضا وصل إلى ما هو أبعد من الخيال.

٧-شباط-٢٠٠٠

أمنية حوض النعناع

هل يمكن لساكن المخيم مهما كان تفكيره فذا أن يفكر في مسألة ما لتطوير وضعه دون أن تقف قضية اللجوء حاجزاً وسداً منيعاً في وجهه...

ثمة أمنية بسيطة تمنتها أم بلال في مخيم الأمعري وهي أن تزرع حوضاً من النعنع يعيد لذائقتها لذة طعم الشاي بالنعنع الذي كانت تشربه من أيام البلاد، فهل استطاعت ذلك؟

كلا لم تستطع، لأن زراعة حوض صغير من النعنع يحتاج إلى متر مربع من الأرض فهل تمتلك هذا المتر المربع؟ تفذلك المتفذلكون الذين لم يجربوا طعم العيش في المخيم فقال أحدهم: بوسعها أن تزرع في إطار مستعمل لسيارة وتضعه بجانب مدخل بيتها. مدخل بيت هذه المرأة وحده يعرف ألا مجال لذلك، فمدخل البيت نفسه يفتح على زقاق المخيم وعلى بعد بضعة إنشات تمتد قناة لتمرير المياه العادمة، فأي مكان لإطار سيارة يتحول إلى حوض نعنع؟

قال ثان: يمكن أن تضع الإطار أو أي تنكة أو حوض بلاستيكي على الشرفة. قالها بسذاجة تدل على أنه لا يعرف أن بيت هذه المرأة اللاجئة بلا شرفات ولا بلكونات ولا حتى شبابيك في متناول اليد.

وهذه المشكلة أيضاً كانت مشكلة دار الصفدي في مخيم البداوي في الشمال اللبناني، وكذلك مشكلة دار الصفوري في مخيم اليرموك في دمشق، ودار العمواسي في مخيم البقعة، ودار النبالي في مخيم الجلزون ودار السوافيري في مخيم جباليا...

حوض النعنع هذه الأمنية التي قد يجدها البعض صغيرة إلى درجة أنها لا تستحق أن تكون ليست أمنية بيت القصيد وبالرغم من ذلك هي أمنية.

لكن بيت القصيد هو استلاب الإنسان وطنه، واقتلاعه من بيته وأرضه. بعد أكثر من واحد وخمسين عاماً، ثمة أجيال ماتت وأخرى كثيرة ولدت لكنها تتوارث الحلم كما تتوارث اسم الشارع الذي تقطنه أينما كانت.

فسيظل الطفل الحيفاوي يتذكر أنه يقطن شارعاً (اسم شارع حيفا في مخيم اليرموك القريب من دمشق) لأنه هو وساكنو هذا الشارع ينتمون جميعاً إلى حيفاً التي اقتلع منها آباؤهم وأجدادهم.

دمشق تتسع والمخيم يضيق، وشارع حيفا هذا الذي احتفظوا باسمه للذكرى كي لا ينسوا أنهم حيفاويون، لا يستطيع أن يستحضر لهم الميناء والبواخر التي اعتاش منهم فلسطينيون كثيرون.

وسكان شارع يافا في مخيم كذا.. لا يستطيعون أن يروا حبة برتقال واحدة دون أن يشعروا بالحنين يجرفهم إلى يافا وبياراتها، فبياراتهم تلك المسلوبة كانت العمود الفقري لاقتصادهم وهي لقمة عيشهم وقميصهم الذي يلبسونه. والعكاويون لا ينسون أنهم طردوا من عكا، وأن توطينهم في كل مخيمات العالم لا يغنيهم عن الصيد على الشواطئ الفلسطينية كل هؤلاء يفتح ملفهم بعد واحد وخمسين سنة ليقولوا لهم:

ليس لكم وطن، سنخترع لكم وطناً بديلاً، أغمضوا أعينكم وتخيلوا مخيماتكم وطناً، أغمضوا عيونكم وأحلموا بأن علبة السردين (حتى وإن كانت منتهية الصلاحية) بحر يافي مليء بالسمك. أغلقوا آذانكم وتخيلوا "أن الأرض بتتكلم عربي" وضعوا على أفواهكم شرائط لاصقة ورددوا بعيونكم أن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديموقراطية.

ثمة أشياء كثيرة أكثر مما يتخيلون ستكون لكم الوطن الحاضن (وطنكم أو مقبرة أحلامكم) لا فرق، فالدول الكبرى لا تدقق كثيراً في المصطلحات الصغيرة، أمام المصطلحات الكبيرة التي تناقش في الدائرة الرسمية مثل كلمة التوطين، فتصبحون أنتم متوطنين بدلاً من مواطنين ويصبح في بلادكم المستوطنون مواطنين، فهاهم بدلاً منكم يزرعون الورد والنعنع.

وأخيراً أنا لست ضد الورد، فكما قال شاعرنا محمود درويش:

إنا نحب الورد لكنّا نحب القمح أكثر

ونحب عطر الورد لكن السنابل

منه أطهر.

ونغرق في الوحل

البنية التحتية، وما أدراك ما البنية التحتية، ما تحتها وما فوقها، أشياء كثيرة لا يعاني منها إلا المواطن ولا تعلم بها الجهات المختصة ويغطي عليها أصحاب المصالح كي يضمنوا استمرار مصالحهم.

أنا وأعوذ بالله من قول أنا أذهب إلى عملي صباحاً لأعود في أخر النهار وأجد كومة من ملابس أولادي المليئة بالأوحال والطين، تذكرني بأن علي أن أصحو في الصباح الباكر أو أسهر لأغسلها.

ولا ألوم أولادي الصغار، فالطريق من البيت إلى المدرسة على امتداد كيلومتر موحلة منذ حوالي سنة لماذا؟

قريتنا الصغيرة البسيطة كوبر تحتاج إلى كثير من مشاريع البنية التحتية وتطوير وضعها، ونحمد الله على أنها قد بدأت تنال بعضاً من نصيبها.

منذ مطلع العام الماضي بدأت الحفريات لتمديد شبكة الهاتف، معناه أن قريتنا ستتصل بالعالم الخارجي ويتصل بها وهذا جيد، استمرت الحفريات بضعة شهور، كانت خلالها الشوارع موحلة ومليئة بالأتربة، "تبهدلنا" شتاء وتخنقنا بغبارها صيفاً، حتى بتنا نتنفس غباراً بدل من الأكسجين.

هذا ناهيكم عن قطع المياه عن القرية بسبب تكسير أنابيب المياه بالجرافات مما يزيد الطين بله ويزيدنا عطشاً، انتهت الحفريات وحمدنا الله على نهايتها إلى درجة لم نعد فيها راغبين بالتعرف على هذا التلفون الذي طال انتظارنا له وما زلنا.

ولكن يا فرحة ما تمت، فقد جاء مشروع توسيع الشوارع الذي بدأ منذ مطلع الصيف الماضي أو الربيع، وعادت الحفريات بأوحالها وبغبارها وبقطع المياه من جديد. وعادت القرية تغرق في الوحل.

الأصوات تعلو، غرقنا في الوحل، وما تزال الطريق موحلة، نريد توسيع الشوارع والشوارع ما تزال ضيقة، فقد علمنا أن عرض الشارع يجب أن يكون ستة أمتار ولكن المناطق التي أنجز التوسع فيها لم تصل إلى ستة أمتار بل خمسة وخمسة ونصف. أين ذهبت الأمتار؟ من أين التنسيق؟ لماذا لم يجر توسيع الشوارع، وتمديد شبكة الهاتف.في نفس الوقت، أما كان من الممكن أن يوفروا على البلد وعلى أنفسهم وعلى المولين الشيء الكثير؟ من المسؤول؟ ولا أحد يجيب؟

وما زلنا نغرق في الوحل ولم تزفت الشوارع بعد. لأول مرة عرف ذوو المنازل البعيدة عن الشارع نعمة بعدهم عنه، وعرف القريبون أن قربهم نقمة.

وما يخشاه الناس الآن الذين ينتظرون بفارغ الصبر تزفيت الشارع بعد أن "زفتوا عيشتهم" أن تفطن مصلحة المياه أو أي مصلحة أخرى لترميم شبكاتها ويبدأ الحفر بعد الانتهاء من الشارع.

ولا أحد يدري هل المشكلة تكمن في عدم التنسيق بين المولين أم بين القائمين الفلسطينيين والمخططين لمشاريع البنية التحتية أم بين المتعهدين المنفذين والمسابقة للحصول على أكبر عدد من المشاريع؟

أم أن المشكلة في كل هؤلاء جميعاً؟

٣-نيسان-٢٠٠٠

الإسكان شجون وجنون

تفضل على أبراج العاج بلا إحراج، شقق بنظام الفيلات لكل العائلات، بقليل من القروش تمتلكون العروش للعرسان والعشاق بنرضي كل الأذواق، أبراج النجوم للعموم، عمارة الماس لكل الناس. مؤسسة الإسكان لكل زمان ومكان...

هذه مجرد صيغ مقترحة لإعلانات عن إسكانات مستقبلية. لكنها تشبه كثيراً الإعلانات التي نراها يومياً في الصحف المحلية. والتي تعطينا فكرة أن الدنيا بخير وأن هناك فائضاً عن حاجة السكان. وهذه حقيقة فالشقق الكثيرة فائضة عن حاجة السكان، لكن آلاف السكان أيضاً "فائضون" عن حاجة الإسكان. فالشقق والحمد لله كثيرة، وكثيرة جداً، إلى درجة أخلت بالتضاريس الطبيعية لهذا الوطن الصغير ويخشى أن تهددنا مستقبلاً بزلازل وهزات. فكثير من الجبال تم تجريفها، ومساحات شاسعة من أراض زراعية تم تحويلها إلى قلاع إسمنتية وحجرية. والتسابق على بناء الأبراج والأدراج دون أي شعور بالإحراج دون دراسة ودون تخطيط مسبق. ومشاريع الإسكان الكثيرة التابعة لمؤسسات ووزارات ونقابات وأفراد ومجموعات. الأجور نار ومربوطة بالدولار. ولا تفتش ولا تحتار.

الأرض أصبحت مهددة بانفجار سكني، كما هو العالم مهدد بانفجار سكاني. ونحن في فلسطين لسنا استثناء، فنحن أيضاً مهددون بانفجار سكاني. فلا السكن قادر على استيعاب السكان ولا السكان قادرين على دخول هذه المساكن بسبب ارتفاع أجورها والخلوات والاشتراطات ذات السقف العالي التي يضعها الملاك على المستأجرين، الدفع المسبق لسنة أو سنتين، تفضيل الأسرة الأجنبية على الأسرة الفلسطينية. أجور لا تتناسب على الإطلاق مع متوسط دخل الأسرة.

أصحاب رؤوس الأموال يخططون في كثير من الأحيان ولا يتصرفون بشكل عشوائي. ويريدون دائماً أن يضمنوا عودة رأسمالهم مضاعفاً من جراء أية خطوة يخطونها. فصاحب إحدى العمارات في رام الله وكان من الأثرياء "بعيدي النظر" بنى برجاً من سبعة طوابق. ويملك بعدد هذه الطوابق ملايين في البنوك. بنى برجه ذلك على رائحة العملية السلمية، ومستأجروه أيضاً استأجروا على الرائحة ذاتها. فهو من الناس الذين يقرأون اللحظة السياسية الحالية جيداً ويستثمرونها جيداً أيضاً. فقد بادر بالإعلان عن نيته بناء هذا البرج في وسط المدينة. وأعلن عن رغبته في التأجير مما حدا بالذين يثقون بقراءته للأمور إلى استئجار الطابق الأرضي وهو ما زال يحفر الأساسات ودفعوا الأجور مقدما. وهكذا باشر في البناء بالأجور التي تقاضاها، وهكذا فعل بكل الطوابق فأنجز البرج دون أن تمس ملايينه السبعة بأي نقص. يتباهى كثيراً بحنكته وقدرته الإدارية.

نقول ماشي الحال. هذا وجد أصحاب شركات ومؤسسات قادرة على الاستئجار والدفع مقدما، ولكن هل بوسع زوجين شابين أو أسرة عامل أو موظف جديد أو أسرة كثيرة الأطفال أن تلبي شروط المالكين؟

أما مؤسسات الإسكان الممولة، فهذه مؤسسات من جهة حبالها طويلة، ومن جهة أخرى تواجه المشتركين والذين ينوون الاشتراك فيها جملة من المشاكل والمعيقات. منها بيروقراطية القائمين عليها، تعاملهم بالمحسوبية وإرضاء الأصحاب والأحباب والأقارب على حساب أصحاب الحاجة الأصليين. إذن الذين يشتركون فيها عليهم أن يدفعوا ما يعادل ثمن الشقة أجرة لشقة أخرى قبل أن تنجز الشقة المحجوزة التي دفعوا عربونها في إسكان ما من مشاريع الإسكان الكثيرة. هذا إذا وثقوا ودفعوا العربون. لكن مخاوف كثيرة تراودهم قبل الدفع فيفضلون عدم الدفع.

الحديث في هذا الباب حديث ذو شجون قد توصل صاحبها إلى الجنون.

والكل أصبح ينظر إلى العملية السلمية على أنها استثمار. لذلك فكرت بتغيير الصيغة المقترحة للإعلانات لتتناسب وواقع الحال. فتصبح كالتالي: (مش إلك أبراج العاج يا محتاج. شقق بنظام الفيلات لأبناء الذوات، من يملك القروش يملك العروش، للعرسان وللعشاق أفضل حل بالطلاق. أبراج النجوم لناس بلا هموم، عمارة الماس لناس وناس. ومؤسسة الإسكان بتشيب الراس وبتخلع الأسنان).

٨-أيار-٢٠٠٠

تذاكر مجانية لموت عاجل

في سنوات السبعينات وكانت حرب السنتين في لبنان كتبت قصيدة بالعامية، وقلت فيها:

لبنان يا لبنان

كل شيء غلي فيكي

ما حل فيكي يغلّو هالإنسان

وكان الشعور الطاغي على البشر في ذلك الوقت أن حياة الإنسان هي "السلعة" المجانية الوحيدة في ظل الغلاء الفاحش لكل السلع.

ما جعلني أعود ربع قرن للوراء أن هذه النظرة لم تعد صالحة لزمن الحرب فقط، بل هي أيضاً صالحة لزمن السلم. فأشكال "التصريف" المجاني والسريع لحياة البشر أصبحت أكثر تعدداً، فعدا عن الحرب هناك حوادث الطرق، الجريمة، الفوضى، غياب القوانين والأخطاء الطبية، ناهيكم عن أمراض العصر من كل صنف ولون، سرطان بأشكاله وألوانه، ثلاسيميا، أمراض القلب، الأعصاب... كل ذلك أصبح بمثابة "تذاكر مجانية لموت عاجل".

تطالعنا الصحف بأخبار وتقارير تمثل القلة من فيض كثير حول حالات وفاة مستعجلة أو موت مع وقف التنفيذ جراء خطأ طبي في عملية جراحية ما، أو في تشخيص حالة ما.

ولا تتوقف هذه على منطقة دون الأخرى، ففي يوم نسمع عن حالة في شمال الضفة، وفي يوم آخر نسمع عن حالة أخرى في جنوبها ووسطها أو قطاع غزة.

ممرضة درست التمريض وعملت في المهنة مدة من الزمن، لكنها اضطرت للتخلي عن المهنة ولبدء حياتها في الدراسة لمهنة أخرى والسبب في ذلك أن الأخطاء الطبية يحملون مسؤوليتها للممرضات والممرضين ويخرج منها الأطباء مثل "الشعرة من العجين".

أحياناً كثيرة يحملون المسؤولية للقضاء والقدر، ويستشهدون على ذلك بما يطيب لهم ويعزز مواقفهم من القرآن والشعر والأمثال والحكم ليدللوا على أنهم أبرياء براءة الذئب من دم يوسف. وليس هذا فحسب، ولكن مستشفياتنا تحتاج إلى "خرزة زرقاء" لرد العين والحسد عنها، فإذا اضطر المريض لدخول قسم الطوارئ في مستشفى حكومي فإنه يضطر للانتظار على "الدور" فترة من الزمن لا يجد مقعداً للجلوس، وما عليه إلا الانتظار ليدخل القسم بمرض إضافي سببه الوقوف أو جلوس

القرفصاء، وإذا تبين أنه يحتاج إلى طبيب أخصائي يحول ليأخذ موعداً لرؤية الطبيب الأخصائي، كما حصل معي عدة مرات حيث كنت أعاني من ألم في الساق والزهر، وجرى تحويلي إلى طبيب العظام، وكان ذلك من شهر تموز فحددوا لي موعداً في ١٧-٩ أي بعد أكثر من شهر ونصف.

أما في الطوارئ فقد وصفوا لي نوعين مسكنين للآلام وجدت أحدهما في صيدلية المستشفى أو بالأصح وجدت دواء بديلاً لنوع، أما النوع الثاني فهو غير موجود اضطررت لشرائه من خارج عيادات الصحة.

وأنا يا جماعة امرأة محظوظة جداً، لأنني زوجة موظف حكومي، إذن أنا مؤمنة صحياً، لكن ما يحصل أن التأمين الصحي لا يغطي الدواء هذا من ناحية، من ناحية ثانية علي أن انتظر وأن أتصالح مع آلام الظهر التي أزمنت وأتصادق معها حتى يحين موعد طبيب العظام. الخيار إذن يكون: بلا تأمين بلا هم، والبحث عن طبيب خاص لا يعلم بحقيقة الحال، ولا يستوعب أن ما يدفع له هو رزق العيال. ولكن أفضل من التذاكر المجانية للموت العاجل.

٥-حزيران-٢٠٠٠

أوعى تقوم يا "محسوم"

حاجز "محسوم" الفظوها كما شئتم بالعربية الفصحى أو بالعبرية، كلمة دخلت حياتنا اليومية، وتقبلناها تماما كما يتقبل عمال المناجم دخول ثاني أكسيد الكربون إلى أجهزتهم التنفسية. نتنفس "المحسوم" عند ذهابنا وعند إيابنا. ويمر كثيرون منا عبر فحص أرقام هوياتهم ضمن قائمة "المغضوب عليهم" وبما أننا نتحدث في موضوع التنمية وما أدراك ما التنمية، فالحاجز يحجز التنمية، وهذا أمر "محسوم" لا جدال فيه.

عن ذلك يمكننا أن نسأل مصباح وعائلته، فعدا عن كون مصباح وعائلته تأثروا كما تأثر مئات الآلاف من الناس بالحواجز التي تقطع أوصال القطعة الواحدة من الأرض إلى كانتونات محكوم عليها بمواجهة يومية مع الموت في كل يوم وفي كل لحظة، مئات الآلاف من العمال والفلاحين والمواطنين والطلاب، الأصحاء والمرضى.

إلا أن مصباح الذي اعتاد ومنذ ما يقارب الثلاثين عاماً على زراعة الأرض التي استأجرها في منطقة عين الشيخ يوسف التي اكتسبت في السنة الأخيرة لقباً جديداً للشهرة هو "محسوم سردا"، فبيته يقع شمال "المحسوم" وأرضه تقع جنوب غرب "المحسوم"، والشارع الالتفافي الاستيطاني يمر من منتصف أرضه، وخيمة جنود الحاجز مقامة مكان عريشته التي كان يبيع منتوجات أرضه من خضار وفواكه تحت ظلها.

لا أريد أن أتحدث عن معاناته منذ أن حدث هذا الزلزال الذي زلزل أركان حياته وزرع الرعب مكان الاستقرار والأمان في قلوب أفراد أسرته. فبيته في مرمى رصاصهم، وأرضه المجال الحيوي الأول لانتشار غاز قنابلهم، لن أتحدث عنه ليس خوفاً من المبالغة، بل لأنني لا أعرف حجم الخوف الذي يعتريه.

هناك على الحواجز الكثيرة والتي تعد بالمئات أصبحنا نرى تنمية من نوع خاص، مثلاً:-

١- الحواجز ردت الاعتبار للحمير التي استعادت سالف مجدها المهدور في ظل العمل المأجور. إذا هناك استفادة من الثروة المهملة كالحمير.

٢- أصبحنا نرى الناس الحفاة العراة رعاة الشاة يمشون جنباً إلى جنب مع أصحاب السيارات الفارهة ومع أولئك الذين أسرفوا تطاولاً في البنيان دون فرق أو تمييز وهذا وفر لنا المساواة.

٣- بعض سائقي العمومي والذين يوصفون بأنهم "يحلبون النملة" وجدوا في الحواجز فرصتهم التنموية والتي جاءتهم على طبق من "المكعبات الأسمنتية"، فقد اختصرت عليهم نصف الطريق، ووفرت عليهم الدخول في ازدحام وسط البلد وأراحتهم من مخالفات الشرطة الكثيرة، وبقيت الأجرة كما هي، هؤلاء يتذمرون من الحواجز ولسان حالهم يقول "الله يديمها علينا نعمة ويحفظها من الزوال"، أقوال بعضهم وليس جميعهم. وهذا يعني إمكانية للاستفادة من الأزمات وخطط الطوارئ.

٤- "طقوس" المرور لا تتغير من تغير الطبيعة فبغض النظر كان الطقس مشمساً وحاراً أو كان ماطراً فللطبيعة طقوسها التي تتغير ولجنود الحاجز طقوسهم التي لا تتغير. وهذا الثبات في الطقوس يتيح المجال لمن يريد أن يخطط "لتنمية بعيدة المدى".

إذا المساواة والثروة الطبيعية والتخطيط والثبات والاستقرار، عوامل متوفرة أليست هذه هي مقومات التنمية. شو بدكم أحسن من هيك؟ عيشوا في هالنعمة، وارفعوا شعار "أوعى تقوم يا محسوم".

١٤-أيار-٢٠٠٢

مسافة بين الجاهزية والتحمل

أن نمتلك جلداً سميكاً قادراً على تحمل الضربات المتتالية شيء، وأن نهيئ أنفسنا لتحمل هذه الضربات شيء آخر. ذلك كان موضوع جدال بين مجموعة من الصحفيين والأكاديميين في بداية الانتفاضة.

فبعضنا يجازف بالقول إننا مهيأون ومستعدون وقادرون على العيش لو قطعوا الماء والكهرباء وحتى الخبز، وبالتالي نحن مهيأون لمواجهة الظرف، وعندما قلت بكل بساطة أننا غير مجهزين وغير مستعدين، زايد على بعضهم بالقول، ألا يمكنك العودة للعيش على الخبيزة والعدس مثلاً؟ ولكن المسألة ليست كذلك، فكثير من الناس يعتمدون في وجبات كثيرة على الخبيزة والعدس ولم يقاطعوها حتى يعودوا إليها من جديد. ولكن هناك فرقاً بين أن نكون جاهزين للمواجهة ومهيأين لها وبين أن نستطيع العيش في ظل تلك الظروف القاسية. بكلمات أدق أقول: أن أمتلك بئراً للماء في ساحة بيتي وأستغل مياه الأمطار مثلاً، فإنني أكون مستعدة لقطع المياه، وان امتلك وقوداً أو مولداً كهربائياً فإنني أكون مهيأة لقطع الكهرباء. وان أمتلك أرضاً جاهزة للزراعة، بمعنى أنها ليست خراباً منذ بضع سنوات أو عقود وأستطيع أن أزرع فيها الحبوب والخضار فأنا جاهزة مهيأة لمواجهة قطع كثير من سبل العيش. إذن هناك فرق بين الجاهزية وبين القدرة على التحمل. هذا على صعيد الأفراد والأسر. وكذلك الأمر على صعيد السلطة والمؤسسات.

وقد أثبتت الظروف والضربات المتلاحقة والتي كان أخرها المجازر الوحشية التي شهدها مخيم جنين ونابلس وشهدتها كل مدينة فلسطينية بشكل أو بآخر أن لدينا قدرة على التحمل قلما يستطيعها شعب، وبالمقابل تبين خلال بضعة أسابيع من الحصار عدم جاهزيتنا المادية للمواجهة. فحين عاد الكثيرون للأرض واقتنعوا بخطأ تركها بوراً طيلة سنوات مضت معتمدين على العمل المأجور، فقد اكتشفوا أنهم لا يملكون البذور الصالحة للزراعة. فالحصول على بذور القول البلدي مثلاً الذي يصلح لزراعة أرضنا تبين أنه أصعب من الحصول على عين ماء في صحراء. ولا مبالغة في القول إن بذور الفقوس والكوسا وغيرها صار الحصول عليها شبه مستحيل، إلى درجة أنه يمكن شراء كيلوجرام من اللحمة بثمن ثلاثين غراماً من البذور. وحين انقطعت المياه تبين أن العطش كاد يودي بحياة الكثيرين وربما أودى. وأشياء كثيرة كشفت مدى هشاشة بنيتنا وجاهزيتنا.

فلم يكن بيننا لا أفراد ولا مؤسسات ولا سلطة ولا أجهزة ولا أحد يمكنه أن يدعي انه كان مستعداً.

ما أريد قوله هنا أن دروس المرحلة وعبرها يجب ألا تنسى. والتراخي في مرحلة ما يجب ألا ينسينا

ضرورة الاستعداد لمراحل الشد.

وإذا كان من أحد ينبغي أن نتعلم منه فهو دولة الاحتلال. ولا عيب أن نتعلم من عدونا. فعودة للتاريخ ترينا أنهم يحسبون حساباً لمرحلة قبل مجيئها بعشرات السنين. صحيح أننا لا نمتلك إمكاناتهم المالية والعسكرية ولا نلقى الدعم السياسي الذي يلقونه. لكن وكما يقولون فإن دوام الحال من المحال. فنحن نمتلك الأرض ونمتلك الإرادة ينقصنا حسن التخطيط والتدبير والقدرة على اغتنام الفرص والنظر ليس إلى المرحلة فحسب بل إلى الصمود في معركة الدفاع عن الوجود.

٢٤-حزيران-٢٠٠٢

بيضة عن بيضة تفرق

قد ندخل من الباب، ذات الباب عشرات ومئات المرات وتضرب رؤوسنا في مرات كثيرة بأعلى الباب، ولا نعير هذه الضربات التفاتا، وننساها في كل مرة.

ضربة واحدة لا ننساها، بل تدفعنا إلى التفكير بقلع الباب من جذوره واستبداله بباب أكبر طولاً وعرضاً إنها الضربة التي توجعنا أكثر من كل سابقاتها، وتصيبنا في وقت لا نتوقعها تؤلمنا وتؤذينا، ولا نستطيع نسيانها. تلقننا درساً يفيدنا إلى الأبد.

فهل كنا بحاجة لمثل هذا الدرس الذي يكلفنا آلاف الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى وعشرات آلاف الدونمات من المحروقة. آلاف المصابين الذين تحولوا إلى معاقين وللأبد. وآلاف البيوت التي تم هدمها، بعضها فوق ساكنيه، وبعضها فوق أساساته. وطن مقسم إلى مئات الكانتونات الصغيرة، هل كنا بحاجة لدرس بمثل هذه القسوة والشراسة حتى ننتبه إلى أرضنا التي أكلها الخراب وأصبحت مشاعاً لكل ديدان الأرض، ما فوق التراب وما في باطنه.

البعض عادوا إلى الأرض، لا بأس، نقول فالعود أحمد فثمة قطعة أرض لم تعرف منذ بضع سنوات سوى البوار وخضرة الأعشاب والأشواك زرعت هذا العام بالقمح وعرفت الخضرة النافعة.

وثمة بيوت أكل أهلها البيض الذي صنعوا صفاره بالأصباغ والكيماويات، أكلوا منه حتى استنفرت أمعاؤهم ومعدهم احتجاجاً فعالجوها بالحمية والراتيدين. لكنهم اكتشفوا أن في الطبيعة والأرض ما هو أنفع من الراتيدين والكورتيزون فربوا الدجاج البلدي، وأكلوا البيضة البلدية ورأوا بأم أعينهم أن بيضة عن بيضة تفرق، وصفاراً عن صفار يفرق.

وأدركوا أن أيديهم أكثر حنوا على الكوسا من "الحماموت" وان شمس بلادنا وماءها وترابها أكثر لطفا من كل الهرمونات والمبيدات التي لا ترحم.

لا نزال في أول الطريق، لا نزال في الخطوة الأولى من مسيرة الألف ميل، وهذه الخطوة لا تزال خطوة مرتبكة غير راسخة على الأرض، بدأت عفوية، ولا نريد لها أن تبقى عفوية. حفزت عليها غريزة البقاء، ونريد لها الاستمرار والتواصل.

بدأت ارتجالية ونريد لها أن تواصل بتخطيط، بدأت بشكل فردي. ونريد لها أن تكون شاملة للشعب وبدأت من الزراعة ونريد لها أن تكون على مستوى كافة القطاعات.

وبدأت بإخلاص ووفاء لأن العمل كان كما يقول المثل "شغل المعلم لروحه" ونريد لها أن تبقى بإخلاص ووفاء ونظافة.

من اجل كل ما سلف كنا نتوق للتغيير، نطالب بالإصلاح ونرغب في التخلص من كل الأدران ليصبح جسدنا قوياً معافى سليماً. فهل سيكون لنا ما أردنا؟

وكان الإصلاح والتغيير مطلباً صميمياً ورغبة حميمة، خفقت بها قلوب جماهير الشعب قبل أن تنطق بها ألسنته، نتوق دائماً لأن نكون أمة تأكل ما تزرع وتلبس ما تصنع. ولدينا أن توفرت الإرادة إمكانات كبيرة، فلماذا لا نبدأ؟

محدثتي قالت قبل أيام: هذه شجرة المشمش الصغيرة تجبرنا أن نحرسها يومياً من عبث الصغار، لا نمنعهم عنها لكنها لا تكفيهم. فتحنا لهم المجال، فتدافع إليها عشرون طفلاً، تألمت كثيراً، ليس فقط من أجل حبات المشمش ولكن لأن كل بيت بإمكانه أن يكون لديه ما يشتهي من أرضه وعرق جبينه، فلماذا لا يكون؟

٣-آب-٢٠٠٢

ليس عيباً أن يكون الإنسان "حمار نفسه"

كان أحد صباحات موسم الزيتون، نستعد ككل الفلاحين لهذا الموسم الذي أحبنا وأحببناه وأتعبنا وأتعبناه. ألبس حذائي الرياضي – لست رياضية ولا أدعي، لكنها مقتضيات العمل – وبنطلون جينز تأكل لونه الأزرق واستحال إلى خليط من الزيت والغبار الذي يصعب تحديد لونه. وكنت أحمل "بقجتي" بما فيها من مستلزمات العمل، عدة أو تموين أو لم أعد أذكرها. فلم نكن قد وصلنا إلى التطور الحالي، بمعنى آخر لم نكن نملك حماراً ليحمل أعباءنا الكثيرة، ولم يكن أمام الواحد منا إلا أن يتدبر أمر أحماله ويصبح "حمار نفسه"، بإمكان من لا تعجبه مثل هذه الجمل ألا يزعج نفسه بقراءتها.

مالنا ومااللحكي الكثير. كنت على أتم الاستعداد للانطلاق، بل وصلت إلى الطريق، حين التقيت بفتاة مهندمة، عرفت على نفسها أنها من أحد مراكز البحوث – وما أكثرها ولا حسد، وعندما سألت عن صاحب البيت أكدت لي أن بيتنا في العينة المستهدفة بالبحث. وعما إذا كان هناك من يفيدها في تعبئة الاستبيان. جلست وإياها أمام المنزل حيث لم تشأ أن تعطلني عن عملي. ولما وصلت إلى النقطة التي تتعلق بالمستوى التعليمي والوظيفي لأفراد الأسرة، وأنا من بينهم، سألتني عن مستواي التعليمي، فأخبرتها إنني بمستوى كذا وأعمل في الوظيفة كذا.

ارتفع حاجباها واتسعت عيناها دهشة وذهولا وقاستني بعينيها طولا وعرضا غير مصدقة "ادعائي".

ثم تمالكت نفسها وعبرت عما سبقتها عيناها في التعبير عنه قائلة: معقول ماجستير.؟ وعلامة استفهام كبيرة تعقب سؤالها، ثم أردفت: مش باين.

لست هنا بصدد إكمال القصة وتداعياتها اللاحقة، حتى لا يحمر وجه الفتاة إذا صادف وقرأت هذا المقال كما أحمر يومئذ. لكنني والشيء بالشيء يذكر، تذكرتها وأنا أتذكر قرانا الطيبة المسكينة التي تحب أهلها ولكنهم يتنكرون لها إذا تعلموا بعض الشيء، يهجرونها ويهجرون أرضها، بشكل مؤقت أحياناً وبشكل دائم أحياناً كثيرة. البعض يجري وراء الوظيفة. ولا عيب أو غضاضة في ذلك، إنها لقمة العيش. لكن أن يتنكر البعض لقراهم وتطحنهم طاحونة الحياة الاستهلاكية في المدينة وتؤول (أرضهم إلى خراب)، لا لشيء إلا لأنهم يستكثرون على قراهم قدرتهم على القراءة والكتابة، وربما تطوروا إلى استخدام الكمبيوتر والانترنت، يستكثرون قمصانهم المكوية وياقاتها البيضاء على تراب أنجبهم ورباهم وعلمهم.

وكأني بلسان هذي الأرض يصرخ معاتباً مستنكرا:

أعلمه الرماية كل يوم فلما أشتد ساعده رماني

فهل ألوم هذه الفتاة؟ فتاة في مقتبل العمر التحقت بوظيفة باحثة ميدانية، تهندمت بأفضل ما لديها من الثياب، وحملت عملها في حقيبة البحث ومضت، لتجد امرأة مثل حالي ارتدت ما لا ينم عن علم ولا عن ثقافة كما ظنت أختنا.

أكملت استبيانها، حملت حقيبتها وحملت "بقجتي" هي تمشي سيدة نفسها وأنا امشي "حمار نفسي". ولا أخجل من هذا القول، فليس عيباً أن يكون الإنسان "حمار نفسه" فيحمل أمتعته ويعتمد على نفسه. أليس الحمار رمزاً للعطاء دون مقابل. نحن لم نرق بعد لهذه المنزلة، فنحن نعطي الأرض ولكن لنا في ذلك مقابل، وإن لم يكن مجزياً، لكنها أرضنا وإليها ننتمي قبل أن ننتمي لشهاداتنا ووظائفنا. أفلا تستحق منا هذه الأرض ولو بضعة أيام من إجازاتنا الشهرية أو القهرية، المدفوعة أو المقطوعة؟ ما أكثر إجازاتنا! وما أقل أيام عملنا؟ أي ما أقل نفعنا!.

٣١-آب-٢٠٠٢

ضمائر عاطلة عن العمل "دخيلكم شغلوها"

إن تمر من أمام نقابة وتجد حشداً من العمال أمامها، تكاد تغالط نفسك للوهلة الأولى فتقول الدنيا بخير، وحركتنا النقابية بألف خير، وتكاد تفرح للنقابة بغض النظر لمن تتبع هذه النقابة ومن أية بيضة سياسية فرخت، ليس هذا هو المهم، المهم أن عمالنا، ومن أي قطاع ليس ذلك مهماً، المهم أنهم يلتفون حول نقابتهم.

قبل أن يستبد بنا الفرح، نذكر مالا ينسى، نحن في ظل احتلال، إنها الانتفاضة، مئات العمال عاطلون عن العمل وهناك آلاف الأفواه الفاغرة بحثاً عن لقمة الخبز، النقابة الفلانية تسجل العاطلين عن العمل ليحظوا بمنحة ٥٠٠ شيقل. أو ألف شيقل، أقل أو أكثر. وربما تموين وربما شيء آخر يحصل عليه القلة ويعود أغلبهم خالي الوفاض إلا من هم جديد يضيفه إلى جملة الهموم والمتاعب التي يحملها. ويكتشف المرء بعد ثانية من التأمل أننا لسنا بخير، لا نحن ولا حركتنا العمالية ولا حركتنا النقابية.

فلو كان هذا الالتفاف من قبل حول النقابات والتجمع على مداخلها، لهان الأمر، لكنه تجمع يمكن أن نسميه بلغة عساكر الاحتلال "تجمعا احترازيا".

فقد كنا في السابق ندخل نقابة، أي نقابة، لنجد فيها من ملفات يعلوها الغبار. العمال عاطلون عن العمل، والنقابات أيضاً ولفترة طويلة كانت عاطلة عن العمل. الآن النقابات تعمل. ليس هذا هو العمل المنشود وليس ما قامت النقابات لأجله.

لكن ما يزيد الطين بله هو أن ضمائر كثيرة عاطلة عن العمل، وأن أخلاقيات البعض قد دخلت في إجازة مفتوحة.

عاطلون عن العمل يتظاهرون في قطاع غزة بصحون وطناجر فارغة وبأمعاء أكثر فراغا. رغم كل ذلك نجد من يحاشرهم على لقمتهم، ويسبقهم ليدس يده في صحونهم الفارغة ليتأكد من فراغها.

فما أن تتبرع جهة معينة ببعض كراتين التموين حتى نجد نفراً من الذين أنعم الله عليهم بوظيفة وبراتب لم يتأثر في آخر الشهر بما يجري، يسابقون الذين لا يجدون في بيوتهم ما يسد الرمق، يسجل الواحد منهم نفسه وابنه وزوجته لتحظى أسرته بثلاث حصص فيما لا يحظى كثيرون من المحتاجين الحقيقيين بحصة واحدة. هذا المسؤول ممن توكل إليهم مهمة التسجيل والتوزيع، يسجل عائلته وعوائل الأقربين ويبرر ذلك ويعالج الأمر بالوصفة الجاهزة "الأقربون أولى بالمعروف" ونقابي يسجل

مئة وعشرين عاطلاً عن العمل من بينهم ٦٠ شخصاً من قريته والستون الآخرون موزعون على ستين قرية إنها "عين العدل".

البعض يقول "ما حدا دافع من كيسه، وإشي جاي للكل للمحتاج والمش محتاج". وأحياناً نكاية بالموزعين غير النزيهين، يبدأ كل واحد بانتقاد السارقين وغير النزيهين، ويفصّل كل واحد النزاهة على مقاسه. ويبقى الجياع جياعاً. ويزداد الشبعانون شبعا، ويبقى المسؤولون في مواقعهم لا حسيب ولا رقيب والكل يتحدث عن النزاهة وتقوى الله.

لقد طالت إجازة الضمائر وطالت مدة عطلها عن العمل.

إنني من هذا المنبر المتواضع أهيب بكل أصحاب الخير أن يبحثوا لهذه الضمائر عن فرصة عمل بشرط أن لا تكون هذه الفرصة في مشاريع من نمط البطالة المقنعة.

٥-تشرين الأول-٢٠٠٢

أجبروها على الزغاريد.. أجبروها على البكاء

زغردت أم الشهيد يوم استشهاده، لكنها بكت بعد ذلك كثيراً وهي تسير وراء جثمان ابنها. لم تتوقع أن تخرج منها هذه الزغرودة. لكنها لم تجد بدا من تلبية هتاف الهاتفين من زملائها في العمل وزملاء أبنائها "يا أم الشهيد زغردي"، كان مدراؤها في العمل – عاملة في قسم الخدمات في إحدى المؤسسات التعليمية الوطنية – يسيرون معها في جنازة ابنها. على سور المؤسسة التي تعمل فيها كتبت الشعارات الوطنية بمناسبة استشهاد ابنها التي ترفع من معنوياتها وتشد من أزرها. بكت من جديد وهي تقرأ الشعارات، شعرت بألم وحرقة، فمن شدوا من أزرها قبل بضعة أشهر، وجعلوها تتعالى على أحزانها وتزغرد، هم أنفسهم من جعلوها اليوم تبكي. تعمل، وعملها ليس سهلاً، أرهقها العمل وأرهقتنا أحزانها أكثر، شعرت برغبة في أن ترتاح للحظات، تريح أعصابها المتعبة، لكن صوت مديرتها جاءها آمراً، اعملي كذا واعملي كذا، أعباء إضافية ليست مطلوبة منها، وليست ضمن نطاق عملها، أعمال تحتاج إلى فني، فك وتركيب، وهي ليست فنية، أحضرت ذات مرة ابنها قام بهذه الأعمال تطوعا. ربما مساعدة للمؤسسة وربما مساعدة لأمه، وربما مساعدة للمؤسسة من أجل أمه. أما أن يصبح هذا العمل واجباً، فهذا لم يكن متوقعا. هذا ما قالته العاملة. لكن ذات الصوت الآمر قال لها: إذا مش عاجبك الشغل مع السلامة. انزوت في زاوية، وجدت قبالتها الشعارات على سور المؤسسة: يا أم.....قري عينا. انهمرت دموعها، تذكرت ابنها الشهيد الذي عملت في هذه المؤسسة من أجله ومن أجل أولادها الآخرين منذ عقد من الزمن. وبعد ذلك بهذه البساطة تسمع مثل هذه الكلمات الآمرة المتعالية. ليس هناك من يرحمها من تعب، كما لم يشفق قتلة ابنها على قلبها المحترق.

تتساءل العاملة تساؤلات تتخللها الدموع: كيف يجري كل ذلك؟ أجبروها على الزغاريد في وقت كان قلبها لا يتحمل مثل هذه الزغرودة. والآن يجبرونها على البكاء. يهددونها في لقمة عيشها وعيش من تبقى من أبنائها. هل يعقل هذا؟ ولماذا؟ وبأي حق؟ من تصدق؟ الشعارات الرنانة الطنانة أم الأوامر ولغة الاستعلاء. أي الوجوه حقيقي وأيها مستعار. وأي الألسن هو الصادق، أيها الانفعالي وأيها الواقعي. لم تكن هذه المرأة البسيطة تتوقع أن لمسؤوليها وجهين مختلفين.

مشت ولسان حالها يردد قوله جل وعلا: "وخلقنا له عينين × ولسانا وشفتين"×. لم يقل سبحانه، جل وعلا شأنه: وخلقنا له وجهين، ولم يقل وخلقنا له لسانين، ولا قلبين. لكن البشر تجرأوا وصنعوا لأنفسهم وجوها كثيرة، يلبسون لكل مناسبة وجها، تماما كما يلبسون الثياب المزركشة للأفراح،

وثياب الحداد للأتراح، مع فارق في المشاعر أحياناً.

ذكرني ذلك بسطحية العلاقات بين الناس في بعض مدننا وقرانا، كيف نرى عرسا في حارة وجنازة في نفس الوقت في نفس الحارة، وكنت أرى نساء يلبسن ثوباً ويحملن في حقائبهن ثوباً آخر، فما أن يغادرن بيت العزاء حتى يلجان إلى أقرب مكان يمكن فيه تبديل ثوب العزاء بثوب العرس، وقد يصل الأمر حد تغيير الثوب في بيت العزاء نفسه. أو في بيت العرس.

الناس أحرار فيما يسعون إليه، لكن حرية الفرد دائماً تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين. فكيف إذا استغلت هذه الحرية لتخويف الناس في مصدر عيشهم.

٩-تشرين الثاني-٢٠٠٢

بطلت توفي مع حدا مع الفلاح بتوفي

زيت إسباني للقلي ، زيت إسباني للشوي ، زيت إسباني للمسخن، للأكل ، للشرب ، للصغار وللكبار، للمرضى والأصحاء . مواطننا قلبه رقيق، حسه مرهف، يحن لأيام الأندلس ويحب الزيت الإسباني. موقف وطني أليس كذلك. حنين لأمجاد سلفت. ألا يحق له ؟

أما زيت الزيتون الفلسطيني يا حسرة عليه، كأنه لا علاقة له بالأرض ولا بالأمجاد. نستخدمه للشعارات ،نتحدث عنه في معارض بيع الكلام،ونذرف دموع الحسرة عليه حين تجرفه الجرافات الإسرائيلية، ونطلق آهات التوجع حين يحرقه المستوطنون.

الفلاح يتعب ويشقى ،الجرافات تقلع، المستوطنون يحرقون ويخربون، والأسواق تغص بالمازولا. لا بأس، دعم لإسبانيا. فهي أحق من الفلاح الفلسطيني .

نركب التاكسي، يقول لنا السائق : إدفعوا شيكل، سعر البنزين ارتفع، بطلت توفي معنا. نتناول فاتورة الكهرباء، نجدها تضاعفت. السبب السعر ارتفع وبطلت توفي، نذهب إلى السوق نجد كيلو البندورة "الحماموت" ب٧ شواقل، السبب كل شيء غلي وبطلت توفي. الدواء ارتفع وبطلت توفي. تدخل إلى صالون الحلاقة تجد أن اجرة الحلاقة ارتفعت، بطلت توفي. وترتفع أسعاركل شيء. وعندما يتعلق الأمر بمنتوج الفلاحين ، زيتون ، خضار- في موسم الخضار – حبوب ، زيت. نجد أن السعر ينخفض كل عام عن العام الذي سبقه، السبب : يدعون أنها "هيك بتوفي" .وتطلع علينا مؤسسات وجدت كما تقول لدعم المزارع الفلسطيني، ولدعم المنتوج الوطني وحماية الفلاح ، وتحدد الأسعار، لا بأس من تحديد الأسعار، لكن أن يشكل هذا التحديد تهديدا لحياة الفلاح فهذا ما لا يدخل مخ عاقل.

بمنتهى البساطة وبضمير مرتاح ودون أن أشعر بالتجني على أحد ، أشعر أن ما يجري بحق الفلاح مؤامرة ، بغض النظر قصدوا التآمر أم لم يقصدوا.

يا جماعة أقسم بالله العظيم أنني أكتب ودموعي تسقط أسى على ما يجري . الطاحونة تطحننا، يقتلعون أشجارنا، نقول هذا احتلال، يلاحقون الفلاحين بكلابهم ورصاصهم ، نقول مستوطنون وحوش، يمنعون تصدير الزيت نقول يريدون تدمير اقتصادنا. يملأون الأسواق بالمنتوج الإسرائيلي والأجنبي على حساب المنتوج الوطني نقول هذه أخلاقيات رأس المال. ولما تأتي المؤسسات الوطنية التي وجدت لحماية المزارع من كل هذه الاستغلالات العدوانية السياسية والأخلاقية الرأسمالية وغير ذلك وتحدد سعر المنتوج ، تحاول أن تذر الرماد في العيون وتوهمنا ويوهمنا المسؤولون القائمون عليها

بادعاء حمايتنا، لكنها في الواقع تقنن هذا الاستغلال وتشرعه، وبالتالي تسهم فيه.

وإلا من يقنع الفلاح أن تحديد سعر تنكة الزيت بثلاثين دينار يحميه، في وقت تكلفه تنكة الزيت ما يعادل مائة دينار قبل أن تصبح زيتا.

قد تقولون أن في الأمر مبالغة ما. لكن إذا علمنا أن تنكة الزيت الواحدة تحتاج إلى ١٦ ساعة عمل في القطف فقط، وما يعادلها في الحراثة والرعاية، دون أن نحسب جهود الأطفال الذين يشاركون في إنتاج هذه التنكة بعد عودتهم من المدارس ، ودون أن نحسب جهود الدابة التي تحرث وتنقل . أم أن تعب الآخرين يحسب وتعب الفلاح لا يحسب؟

الفلاح يتعب ويحمي الأرض ، فمن يحميه ؟ هل يواصل الفلاح عمله في حماية الأرض وينتج ليطعم اللصوص الذين يسرقون عرق جبينه وقوت أطفاله؟ أم يترك الأرض نهبا للخراب ولقمة سائغة لسوائب المستوطنين وعرضة للمصادرة؟ دون شك أن هذه الخطوة هي ما ينقص حتى نتحول إلى شعب بدون أي سنتمتر من الأرض.وإلا من يفسر كيف بطلت توفي مع الطبيب ، بطلت توفي مع التاجر ،بطلت توفي مع الصنايعي، بطلت توفي مع الشحاد، بطلت توفي مع الشوفير، بطلت توفي مع تجار" السبعة وذمتها" ومع الفلاح لازم توفي. من يفسر هذه المعادلة ؟

١٩-كانون أول-٢٠٠٢

عاشور المغلوب وتقليب الجيوب

نجلس لمشاهدة التلفاز، وفي عز الانسجام مع برنامج ما، مسلسلا كان أو موضوعا ثقافيا أو سياسياً، يقطع المذيع علينا الانسجام ليخبرنا أن فاصلاً إعلانياً سيهبط علينا، وكأن الإعلانات قدر لا راد له. بديباجات متشابهة، لمواد أكثر تشابها.

مواد غذائية يريك إعلانها شاباً طويلاً عريضاً، تتهاوي "رجولته" ويكاد يبكي حسرة لأن أحداً من أفراد الأسرة سبقه إلى قطعة جبن، أو أن أسرة تلتهم طعاماً ما بمنتهى الشراهة "مطلقة بالثلاث" كل آداب المائدة التي نتعلمها منذ صغرنا ويطلب منا أن نحافظ عليها حتى لو متنا جوعاً. وفلسفة أفلاطون تصبح "مسخرة" بعد أن كانت علماً وفلسفة تدرس في المدارس والجامعات ويسهر الدارسون على حفظها طيلة الليل، تصبح لا شيء بدون مكيفات كرافت ألفا.

أما المنظفات فحدث ولا حرج. فللمنظف الذي يعلن عنه دائما مفعول السحر في تنظيف البقع، ولا تخجل وسيلة الإعلام أن تقول اليوم أن كل المنظفات ما عدا إريال لا تنظف، وهي قبل لحظة أو بعد لحظة قالت أو ستقول الشيء نفسه عن شاين أو أومو أو أي شيء آخر، هذا ما يجري مع كل الإعلانات وعن كل السلع وفي كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة على حد سواء.

المهم أن يجري توريط المستهلكين في شرائها، لا فرق في الطريقة ولا في الوسيلة، لأن ميكافيللي دائماً حاضر في أذهان المعلنين بفلسفته الغائية "الغاية تبرر الوسيلة".

وبعد تورط المشترين في شرائها يتبين أنها لا تختلف عن غيرها. وإن سألت بائعاً ما أو مسوقاً لهذا المنتوج، يقول إنك استعملته بطريقة خاطئة، ويدرك المستهلك أي فخ وقع فيه. ولكن بعد فوات الأوان أي بعد أن دفع الثمن.

ولا يختلف الحال عند التجار. إذا اشترينا من احدهم قميصاً مثلا فإنه لا يترك مواصفة إيجابية إلا وذكرها في مدح هذا القميص حتى تخاله سيقول "القصيد في مدح القميص المجيد" ليبرر لنا ارتفاع الثمن. بعد التجربة تكتشف أن القميص قد "خرب من أول غسلة"، وحين تذكر ذلك للبائع، مباشرة يرد، هذا النوع يجب ألا يغسل بالغسالة، بل باليد أو بالماء البارد وليس بالسخن أو أو. أنت دائما المخطئ. هذا يذكرنا والشيء بالشيء يذكر بقصة عاشور: اسمه الحقيقي ليس عاشور.

بعد نكبة ٤٨ الهيئة الدولية ممثلة بوكالة الغوث الدولية (جزاها الله خيراً) القيام بواجب العزاء للفلسطينيين بمصابهم العظيم وفقدهم الجلل الذي لا يضاهيه فقد قدمت لهم بعض الخيام وبعض

التموين الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. أحد اللاجئين تفتقت قريحته عن فكرة، وهي أن يحمل حصته من الدقيق ويدور بها على القرى ليبيعها كمبيد للبراغيث. وكون البراغيث والحشرات والأوبئة والفقر مرادفات لكلمة الحرب أو من الآفات التي تفرزها، فقد كانت منتشرة بشكل كبير ومزعج. الأمر الذي سبب رواج تلك البضاعة، وسببت ربحاً وفيراً للبائع. وما أن استلم حصته من التموين في الشهر التالي حتى طاف على القرى. هاج الناس واحتجوا وهجموا على البائع لأن دواءه لم يقض على البراغيث والحشرات، بل أنعشها فتكاثرت "طبعا فقد وجدت في دقيقه ما تتغذى عليه في وقت لا يجد الناس الخبز.

فسألهم: كيف استعملتهم الدواء، فأجابوا: نثرناه في الأماكن التي تكثر فيها الحشرات. ضحك وقال لهم: لقد أخطأتم بطريقة استعماله. وهذا هو السبب، سأخبركم عن الحقيقة الصحيحة.

اشتروا منه ووقفوا يستمعون إلى الطريقة الصحيحة فقال لهم: كان عليكم أن تمسكوا بالبرغوث وتضعوا الدواء في فمه.

غاية عاشور المغلوب أيضاً بررت وسيلته رغم أنه لم يدرس ميكافيللي. دافعه كان درء الجوع عن أطفاله لا البحث عن الثروة ولا تربية النزعات الاستهلاكية لدى الجمهور كما يفعل الباحثون عن الثروة في زمن تسوده ثقافة الاستهلاك رغم حالة الحرب التي نعيشها منذ سنين. فبإعلاناتهم يقلبون الجيوب حتى يفرغوها.

٢٥-كانون ثاني-٢٠٠٣

صندوقي ع جنبي أنا البويجي

من ينبش الماضي يعتبره متحذلقو الثقافة ماضويا "سلفيا" ويعتبره الأقل تحذلقاً تاجراً مفلساً. لأن التاجر المفلس كما يقولون ينبش في دفاتره القديمة. وبغض النظر عن رأي هؤلاء ورأي أولئك فإن في الدفاتر القديمة التي أسمها الماضي حكمة تصلح للزمن الحاضر وذخيرة للمستقبل.

لذلك يروق لي أحياناً أن أنبش الماضي بحثاً عن مثل هذه الحكمة. وها أنا أنبش لأخرج قصة قديمة تتعلق بمواطن فلسطيني عمل "بويجياً" أو ملمع أحذية. وهذا البويجي كان يلمع حذاء كل قاصد لطلب هذه الخدمة، وكان هذا العمل مصدر رزقه ورزق عياله. ثمة ضابط إنجليزي يتقدم كل يوم إلى البويجي طالباً منه هذه الخدمة لكن الأخير يرفض، لأنه لا يريد أية علاقة مع محتلي بلاده. هذا الأمر أغاظ الإنجليزي، فبعث للبويجي من يقنعه بالقبول في خدمة الجيش الإنجليزي. وبعد محاولات كثيرة وإغراءات أكثر وافق البويجي أخيراً. ولبس البدلة العسكرية الإنجليزية.

وحصل على ترقية تلو الترقية، مما أفقده قدرته على مجرد التفكير في العودة إلى مهنته الأولى. وعند هذه المرحلة قام الضابط سالف الذكر بتسريح الفلسطيني.

لم يقدر صاحبنا على العودة إلى مهنته ولا عاد الناس يقبلون به بعد أن ضعف أمام الإغراءات، وليس بوسعه أن يحافظ على "مكتسباته" في الجيش. وأصبح منبوذاً، ثم مات جوعاً وقهراً.

هذه القصة كان يرويها والدي رحمه الله في مناسبات كثيرة، تتعلق بالرضوخ أمام أية إغراءات دخيلة. في حياة استهلاكية سهلة. وأذكرها اليوم.

أذكرها لأن البطالة التي أحدثها الحصار ثقيلة جداً. استراح الناس للعمل داخل الخط الأخضر. فالأجور كانت نسبياً مجزية مقارنة بالأجور في أماكن العمل العربية. لذلك لم يقبل أي عامل أن يعمل بأجر ٤٠ شيقلاً يومياً في حين كان يمكن أن يتقاضى أكثر من مئة شيقل داخل الخط الأخضر أي ثلاثة أضعاف أو تزيد.

لكن الأبواب أوصدت في وجه الألوف المؤلفة من العمال، بعد فترة طويلة من العمل. بمعنى آخر أن الناس اعتادوا على الأجور المرتفعة ولما لم يجدوها لم يقبلوا بالأجور المنخفضة على أمل أن يكون الحصار مجرد أزمة عابرة. لكن الأزمة العابرة باتت كل يوم تعبر زماننا ومكاننا دون أن نجد البديل. وعندما ضاقت السبل وقرر ذوو الأجور المرتفعة أن ينزلوا من علياء أجورهم إلى الأجور المنخفضة، لم يجدوا حتى هذه الفرصة، بمعنى "رضينا بالهم والهم ما رضي فينا".

فأصحاب المصانع والشركات والورش أصبحوا "يتبغددون" على العمال أضعاف ما كانوا "يتبغددون" سابقاً.

يا عمي الموضوع تجارة. عرض وطلب. وكل مرحلة لها مستفيدون ولها متضررون. انتفع الصناع والتجار من قرار المقاطعة، وها هم ينتفعون من بطالة العمال. يسرحون مجموعة وقد ضمنوا أن الغد لن يأتي قبل أن تكون مجموعة أخرى قد حلت محلهم. يخفضون الأجور كما يريدون، ويواجهون أي احتجاج وأي تذمر بـ "اللي مش عاجبه الله معه وألف واحد بيحلوا محلو" ويبررون هذا الإجراء بقلة الشغل وقلة التصدير وقلة الحيلة والسوق والأزمة.

السياسة الإحتلالية واحدة، سواء كان المحتل إنجليزياً أو عبرانياً أو أيا كانت ملته. والنتيجة إننا لم نقبل أن نعود "بويجية" ولم تعد الأوضاع إلى سابق عهدها وحين قبلنا العودة إلى العمل على صندوق البويا لم نجد الصندوق.

ولصندوق البويا صدى جميل في ذاكرة الطفولة. ففي الصف الأول الابتدائي علمتنا معلمة أغنية عن "البويجي" وكأنه يرمز لتحرر الفرد من عبودية صاحب العمل، تقول كلماتها:

بويا.. بويا من كل الألوان   بويا.. بويا يا زهر البستان
بتمشي ع مهلي بروح وبجي   صندوقي ع جنبي أنا البويجي

٨-اذار-٢٠٠٣

لأننا مللنا رؤية الحبر على الورق

صفقنا و"بسنا" أيدينا" بالمقلوب تعبيرا عن فرحتنا ونحن نرى علم وطننا يرفرف فوق هذا المبنىأو ذاك ، وذرفنا دموع الفرح ونحن نرى السيارات العسكرية الفلسطينية تجوب الشوارع، برغم إدراكنا أن هذا لا يشكل التعبير الأمثل ولا التحقيق المرتجى لأحلامنا الثابتة في قلوبنا وعقولنا منذ عشرات السنين. لماذا؟ لأننا نحن معشر الصحفيين مثلنا مثل عامة الناس في هذا الوطن، كنا نصاب بالخذلان حين نسمع أن الصحافة هي السلطة الرابعة. يملأنا الأسى و نسأل بملء فينا : وهل لدينا السلطات الثلاث حتى تكون لنا سلطة رابعة؟

وكنا نأمل أن يكون هناك تنظيم للعلاقة بين السلطات الثلاث في دستور فلسطيني. وأن يكون هذا الدستور ملزما. بمعنى آخر أن يكون نافذا وفاعلا .

ندرك تماما أن المحتلين دائما وكعادتهم يضعون " العقدة في المنشار" . لذلك لن "يقصروا" في وضع ما تيسر لهم من عراقيل لتحول الممكن إلى مستحيل. لكن المحتلين هذا شأنهم ودأبهم ، فلا لوم عليهم لأن اللوم كما يقول المثل " على قد الرجا" فهل رجونا منهم خيرا ذات يوم؟

لكن الفجوات التي تصنع فلسطينيا ، بهدف إرضاء فلان أو استرضاء علان هي المشكلة بحد عينها. فالمحكمة تصدر الحكم ولا غبار على ذلك فهذا شأنها وواجبها ، ولكن أن يبقى القرار حبرا على ورق أي بدون تنفيذ، فهذا من شأنه أن يضعف القرار أو حتى يلغيه، وأن يقلل من هيبة المحاكم ويزعزع الثقة فيها. فالقرار العشائري يمكن أن يكون نافذا أكثر من حكم المحكمة، أو يضطر المدعي للجوء إلى مختلف الطرق غير المسؤولة وغير اللائقة وغير المشروعة لتحصيل حقوقه، ابتداء من الجاهة والواسطة وانتهاء بالخاوات والعضلات وغير ذلك من الطرائق التي قد تؤدي إلى بحر من دم. هذا جانب من الجوانب ، أو نقطة في بحر السلطة القضائية والسلطة التنفيذية.

وحين تصدر تقارير الرقابة عن حالات من الفساد ، أو حالات الإفساد وإنفاق الأموال العامة في الأوجه الخاصة، وهذه أمور يراها عامة الناس،ويجري التعتيم الإعلامي على ذلك بدعوى عدم نشر الغسيل الوسخ الأمر الذي يضطر الباحثين عن الحقيقة لسماعها والحصول على المعلومات حتى لو كانت من إعلام الاحتلال . فإن هذا يجعل المواطن العادي عرضة لغسيل الدماغ الاحتلالي. فلماذا لا نضع الحقائق أمام أعين المواطنين، وبالتالي يصبح الأعلام الفلسطيني مصدرا للحقيقة بالنسبة له وتتعزز ثقته بالسلطة الرابعة الفلسطينية؟ هذا ناهيكم عن معاقبة الفاسدين وتعزيز

الثقة بالسلطات الثلاث الأخرى.

باختصار شديد نحن عامة الناس قد لا ندقق في النصوص ، أو قد لا نقرأها، ونترك " الخبز لخبازه" لكن نتذكرالخباز وخبزه عند حدوث أي خلل لنعود إليه ونرى هل هذا يخالف مواد الدستور والقوانين أم لا. لأننا نفهم أن القانون وضع لخدمة الناس وتنظيم حياتهم وعلاقاتهم لا لخلق المزيد من المشاكل.لأننا مللنا رؤية الحبر على الورق.

١٥-نيسان-٢٠٠٣

ومن الطب ما قتل

و من الطب ما قتل. أقولها وكلي اعتذار للحب والمحبين. كيف لا أقولها وأنا أرى شابا في مقتبل العمر كاد يموت بين حشد من الأطباء يبحثون عن العلة في بطنه وأمعائه وهو يفقد الوعي من شدة الألم في رأسه، وليس هذا فحسب بل أمعنوا في الابتعاد عن السبب الحقيقي لمرضه وهو التهاب السحايا، في حين كانوا يفكرون في إجراء جراحة لبطنه لأن الطبيب الباطني رأى ضرورة جراحة لحل مشكلة توهمها في المثانة، لا أدري إذا كان رأى ذلك في المنام أم في الصور الطبقية التي أنهكوا الشاب وأسرته في تكاليفها الباهظة، ولم يكتشفوا مشكلة السحايا رغم كل أعراضه الظاهرة للأعمى والبصير. الطبيب الجراح فوزي سلامة، طبيب احترمناه جميعا حين استدعوه للمستشفى وحسم الأمر بشكل سريع أن لا داعي لأية جراحة باطنية . قالها بثقة عالية ، وبالتالي ترك لنا الخيار أن نحمل مريضنا ونسرع إلى إنقاذ حياته في مستشفى آخر. وكان المستشفى الآخر هو هداسا-عين كارم. أطباء تعاملوا بمنتهى المهنية ، وجندوا إمكانات المستشفى طيلة أربعة أيام على مدار الساعات ال ٢٤ وأنقذوا حياته. حمدا لله على كل حال . فلم نكن نتخيل أن نراه بيننا حيا يرزق، وفرحنا فرحا أقيمت فيه الولائم وذبحت الضحايا وفاء لنذور الأهل والمحبين.

ما ينبغي قوله في هذا المقام ، هو أننا ندرك الفارق الهائل بين إمكانات الطب في هداسا عين كارم وإمكاناته في المستشفيات الفلسطينية.وندرك أن الاحتلال سبب مباشر في ذلك. وإن كان لهداسا الفضل في شفائه إلا أن لحكومة هداسا "فضل أكبر" في تخلف القطاع الصحي وكل القطاعات الفلسطينية الأخرى. لكننا أمام هذه الحالة وحالات كثيرة مشابهة أدت إلى وفاة الكثيرين جراء الأخطاء الطبية ، لا نستطيع أن نبريء ساحة أطبائنا من المسؤولية.

ففي حين كنا ننتظر الأطباء على أحر من الجمر لنعرف ما سيقولون عن حالة هذا الشاب وهو ابن عمي، يأتي الطبيب بعد طول انتظار ليحتجب في مكتبه لبعض الوقت ثم يخرج علينا، ولما رآنا كثيرين رفض الحديث وابتعد عنا.ربما كنا نعطيه الحق لو كان يعرف الحقيقة. أو لو اعترف على الأقل أنه لا يعرف الحقيقة ، لكنا احترمنا موقفه وشجاعته ، أما أن يدعي معرفة الحقيقة ، ويستدعي الطبيب الجراح، فهذا ما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نسميه إلا بغرور وادعاء. مرة أخرى أقول أن في الأمر فضلا للجراح فوزي سلامي. فلو ذهب الدكتور سلامة إلى ما ذهب إليه الطبيب الباطني ، لقادوا ابن عمي إلى موت محقق.

وفي هذا المجال لا بد أن أقول عن كثير من أطبائنا- بدون تعميم- ما قاله الشاعر:

وإن كنت لا تدري فتلك مصيبة 		وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

لكل هؤلاء الأطباء أقول رحم الله امرء عرف قدر نفسه. وليعترف كل واحد حدود معرفته للحقيقة وذلك لا يعيب أحدا، فحتما سيكون ذلك أول الطريق للحقيقة.

٢٨-ايار-٢٠٠٣

"اللهم نجنا من غلاء القوت وخراب البيوت"

"الله يغلي قوتهم ويخرب بيوتهم" كانت من دعوات الشؤم التي استخدمها أجدادنا القدامى ضد من يبغضونهم. لم تكن هذه العبارة تعني لنا الشيء الكثير وقد كنا نرمي بها بعضنا من باب التندر. وعندما بلغنا ما بلغنا من غلاء المعيشة الضارب بأذرعه في كل مناحي حياتنا حتى وصل إلى الدماء في الشرايين، أصبحنا ندرك كم كانت دعوة هؤلاء القدامى قاسية ومرة وجارحة. فها هو قوتنا يطير في العالي.

أبناء شعبنا الذين ابتلاهم الاحتلال بحصاره وابتلاهم أرباب المال والأعمال بالبطالة، أصبحت لقمة عيشهم وعيش أطفالهم حلماً بعيد المنال.

قبل أكثر من عشرة أعوام كتبت في زاوية شبيهة مقالين: واحد عن أناس لا يجدون ما يسدون حاجتهم وحاجة أطفالهم الغذائية من البروتين الحيواني سوى أرجل الدجاج. والثاني عن أولئك الذين ينبشون النفايات بحثاً عن شيء يلبس أو يباع بعنوان "في نفايات الأغنياء أفضل مما في بيوت الفقراء تلقيت عدداً من ردود الفعل، بعضها يعتبر الأمر مبالغة والبعض الآخر يعتبر القريحة الأدبية والخيال قد جادتا علي بهذا "الإبداع"، رغم أن ذلك كان بعضا مما تراه العين.

والآن نحن في وضع يزداد سوءاً يوماً عن يوم، وحصار يضيق الخناق على الأعناق أكثرمن ذي قبل. ترى ماذا يمكن أن نتوقع إذا؟

كثيرون ممن كانوا يعتمدون على أرجل الدجاج ربما لا يجدونها، لماذا؟

١) لأن سعر كيلو الدجاج أصبح أضعاف أضعاف ما كان عليه آنذاك.

٢) لأن الدجاج أصبح يذبح في المسلخ وما يصل إلى دكاكين الباعة هو فقط اللحم الصافي أما الأرجل فتذهب مع كل ما عداها من "سقط" الدجاج (الريش والمصارين) وغير ذلك.

الدجاج وأرجل الدجاج هذا الغيض الصغير من الفيض الكبير الذي فاض به الغلاء، وعم بـ "نعيمه" على خلق الله.

وفي كل شيء نجد قصة. في الخضار وفي الفواكه، في اللباس وفي القرطاس. والتجار الأبرار ينتعشون. فكما هناك تجار حروب هناك أيضاً تجار انتفاضة، وهناك أيضاً تجار "سلام" وتجار كلام. وشعارهم التجارة شطارة.

ولابد من أن يفلحوا في ذلك لأن "الدنيا للفالح".

الأسعار ترتفع، لا بأس من ارتفاعها ما دام لا يوجد من يراقب ولا من يعاقب. ويكتفي تجارنا بعبارات وآليات وأحاديث وأشعار وشعارات عن تقوى الله، وكأنهم بذلك يدركون أنهم متهمون بعدم التقوى ويريدون أن يدفعوا هذا الاتهام من خلال ذلك.

يعلقون شعاراتهم ويقومون هم بالتحكم في قوت الآخرين يرفعون الأسعار كيفما يشاءون ويخفضونها كيفما يشاءون. هم الآمرون الناهون. وليغلوا القوت ويخربوا البيوت، ما دام ذلك سيزيد أرباحهم ويرفع من بنيانهم. إذاً لا ضرر ولا ضرار ولا على سياستهم غبار.

٤-اب-٢٠٠٣

المدهش والأكثر إدهاشاً في طفولتنا

دار نقاش في إحدى الاجتماعات في إحدى المؤسسات التي تعمل من أجل الطفل والطفولة حول أطفال القرى والمخيمات هل يستفيدون من نشاطات هذه المؤسسات أم لا؟ دافع من دافع عن فكرة أن المؤسسات تهمل أطفال الريف والمخيم، ونفي من نفى؟ وكنت في ذلك الاجتماع-الذي شاركت فيه نيابة عن إحدى المؤسسات الأهلية- صاحبة فكرة انتقاد المؤسسات على تهميش هذه الفئات، وهب أكثر من مدافع عن الفكرة ليتهموني بالموقف المسبق.

ربما كان لدي موقف من ذلك سبق الاجتماع، سكت للحظات على مضض وكنت في قرارة نفسي أشعر بالضيق، حيث ينظر إلى البعض باعتباري طيراً يحب دائماً التغريد خارج السرب. وفي نهاية الاجتماع تم تحديد موعد لبدء برنامج "ورشات عمل" يحضرها الأطفال وكان إجماع غالبية الحضور على أن يكون النصف الثاني من شهر تشرين أول هو الموعد المقترح. لم أتمالك نفسي وأحافظ على صمتي الذي أحس بالخجل منه في قرارة نفسي فقلت للمجتمعين: وهل تريدون دليلاً أكبر من هذا الموعد؟ يؤكد على تهميشكم لأطفال الريف؟ ألا تعلمون أن هذا الموعد عز موسم الزيتون الذي يشارك فيه أطفال القرى مثلهم مثل أهلهم؟ فوجئ المجتمعون وكأنه قبض عليهم متلبسين بالجرم وكان بينهم بعض الفلاحين الذي انسلخوا عن قراهم وارتبطت حياتهم بالمدينة. قال أحدهم: فعلاً أنت فلاحة أصيلة، فرغم أنني فلاح إلا أنني لم انتبه. ومع ذلك لم يغيروا الموعد، لأن المؤسسة الفلانية بنت الفلانية التي تصرف على المشروع تريد تقريرها في الوقت المحدد، لا نستطيع التأخير. وأن أهل الدول الأوروبية والاسكندنافية يحبون الالتزام بالمواعيد ولا نريد أن يأخذوا فكرة عن الفلسطينيين أنهم غير ملتزمين، وهكذا أقر الموعد حفاظاً على سمعة الوطن، كما جاء في مسرحية "كاسك يا وطن".

خرجت من الاجتماع وأنا أفكر في الفارق الكبير بين شخص عاش طفولة بين القهر والفقر والحرمان، ولا يريد أن تعيشه الأجيال القادمة. وبين آخر لم يعش ذلك أو ربما عاشه وتناساه، ولا يهمه إلا أنه هو نفسه قد انتقل من ذلك الواقع إلى واقع آخر. وكوني أدعي أنني انتمي للفئة الأولى، فما زالت قصص الطفولة المقهورة حية في ذاكرتي. إحدى هذه القصص أن إحدى قريباتنا سافرت إلى الكويت في زيارة لأبنائها، ولما كنا من قرية محرومة بكاملها من الماء والكهرباء والمدارس وكل شيء فقد كان كل ما هو خارج حدود معرفتنا وواقعنا غريباً ومستهجناً، فلما عادت المرأة المذكورة أخبرتنا أن أسرة ابنها تضع الدجاجة في الثلاجة، وتبقى لمدة ١٥ يوما دون أن يصيبها التلف. لم نصدق أن هناك

جهازاً يمنع تلف الدجاجة لمدة ١٥ يوماً، كان ذلك مدهشاً وفوق قدرتنا كأطفال على التخيل، لكن ما أدهشنا أكثر هو كيف يستطيعون أن يتركوا الدجاجة طيلة هذه المدة دون أن يأكلوها. ذلك أن الدجاج كان نادراً جداً، فإن وجدت دجاجة فيجب الحفاظ عليها من أجل البيض والتفريخ، لذلك كان أكل الدجاج حلما قد نحلم به أسبوعين كاملين أو شهراً كاملاً دون أن يتحقق هذا الحلم. وإن كان ذلك قد وقع في الستينات، فقد كانت الغالبية الساحقة تعيش مثل هذا الظرف، أما أن نتخيل أن هذا موجود ونحن نقترب من منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين فتلك سخرية. فهل يطلب من هؤلاء الأطفال أن يفهموا قيمة المواعيد "المقدسة" للأوروبيين والإسكندنافيين؟ من يجيب على هذا السؤال؟

٩-ايلول-٢٠٠٣

جنازير و خنازير والمخفي أعظم

شر البلية ما يصيب الأرض وما عليها ومن عليها. مرة يحاربونها بالجنازير ومرة تهاجم بالخنازير . والنتيجة الضحية هو الفلاح ومنتوج الفلاح.

مجنزرة أو جرافة تقتلع الأشجار وتقلب الأرض عاليها سافلها، اعتداءات واضحة فاضحة لا لبس فيها الحجة جاهزة والمبرر دائما بالنسبة لهم موجود. ولا تحتاج إلى تكهن لمعرفة من هو الجاني ومن هو المجني عليه. هذا هو فعل الجنازير.

أما الفعل الآخر المدمر فهو فعل الخنازير. قطعان الخنازير البرية التي تهاجم المزروعات ليلا تقتلع الأخضر واليابس، ولا أحد يدري من أين تأتي، هل هجماتها هذه فعل مدبر أم من عدو مبين أم أن هذه الخنازير تقوم ب" نزهاتها" الليلية بتدبيرها وبمحض إرادتها ورغبتها في التدمير والتخريب. وهذا أيضا تخريب واضح للزراعة والمزارعين. ولا قدرة لهم على محاربتها خاصة وأنها تهاجم في قطعان قد يصل قوام الواحد منها إلى مائة خنزير. في البداية قلنا " مئة على ذمة اللي شافوها" ولكن عندما أصبحنا نرى نتائجها التخريبية اقتنعنا وقلنا ويمكن عددها أكثر .

محاربتها تحتاج إلى قوة وربما إلى سلاح ،وإلى أناس مخولين للقيام بهذه المهمة ، والفلاحون يخافون إن قاموا بالدفاع عن أرضهم من الخنازير أن يزجوا في السجون ، والتهم دائما جاهزة. فمن يدافع عنهم أو من يمنحهم حرية الدفاع عن أنفسهم؟

تخريب مرئي وواضح وضوح الشمس. لكن التخريب غير الواضح وغير المرئي والذي يحمل نتائج وخيمة هو التخريب الذي يمارسه الجهل حين يرتدي ثياب العلم ويبدأ ممارسة العمل.

قبل حوالي ثمانية أعوام وكانت جريدة الحياة قد بدأت في الصدور الأسبوعي " في الأعداد الخمسة الأولى وحتى أضمن ألا أخطيء لنقل الأعداد العشرة الأولى ورد تقرير عن الزراعة في شمال الضفة الغربية وذكر كاتب التقرير أنه ذهب لأحد المزارعين فوجد أن المزارع قد زرع أرضه بالبندورة وفصل بضعة أتلام عن بقية الأرض. وعندما سأله المراسل عن سر ذلك قال: أن هذه الأتلام لاستهلاك عائلته وليست للسوق لأنه يخاف من المبيدات التي يستخدمها لبندورة السوق فهو يظن أنها تسبب السرطان. لأن إسرائيل تستخدمنا وتستخدم جنوب إفريقيا حقل تجارب. وفي هذا السياق أقول ما يطيب لي تذكره دائما:

فظيع جهل ما يجري وأفظع منه أن تدري.

هذا سماد " بيخلي الحبة أكبر" وهذا سماد "بيخلي اللون" أحسن وهذا " بيخلي الثمرة تستوي أسرع" وهذه المادة "بتخلي صفار البيض يصير مثل البيض البلدي" وهذا العلف كذا وهذا المبيد كذا، وغير ذلك من الأشكال والألوان التي تنهك المزارع وتخرب بيت اللي خلفوه في سباقه مع المنتجين وللوصول إلى السوق، وغير هذا وذاك من وسائل التطوير التي تصل بصحة الأرض وصحة الناس إلى الخراب. الفلاح المسكين الذي يعتقد أنه يستخدم كل الوسائل العلمية من أجل إنجاح مزروعاته ومن أجل إنتاج أفضل النوعيات ، ولا أحد يقول للفلاح أنه بهذه الأساليب " العلمية " ينعق على خراب عشه" . وحتى لو قال له أحد ذلك فهو لن يصدق، لأن المهندس الزراعي الفلاني نصحه بكذا والمرشد الفلاني دله على كذا. وما بين الفلاح " علمية " الفلاح وحقائق الأمور لا يعلم إلا الله والمنتجون لهذه الوسائل العلمية . فلا هناك من ينور الفلاح ولا مؤسسات ولا أفراد، ويبقى السؤال هل هناك مؤسسات أو مسؤولون يعلمون بخقائق الأمور أم أن ذلك متروك لذمة وضمير المنتجين والمسوقين ؟ وهل هناك من يبحث في ذلك أم أن أبحاث المنتجين فقط هي المعتمدة؟

فهم وحدهم يعلمون بما فعلت أيديهم وبالتالي سيروج المنتجون أن هذا الهرمون ربما يحسن من مواصفات الخضروات شكلا أو حجما أو سرعة أو.. أو غير ذلك لكنهم لا يقولون لا تلميحا ولا تصريحا أن هذا الهرمون قد يسبب السرطان مثلا أو أن هذا السماد سيخرب التربة لأنه لو صرح بذلك" سينعق هو على خراب عشه" بدلا من الفلاح. وكرما لعين المنتج يخرب مرجعيون.

١٥-تشرين أول-٢٠٠٣

لنحتفظ بالحذوة حتى تأتي الفرس

الدستور وما أدراك ما الدستور؟ سأل سائل : لماذا لا يهتم الناس بالدستور؟ وجد أم لم يوجد؟ هل هو مهم أو غير مهم؟ هل سلبياته أكثر أم إيجابياته؟ وغير ذلك من التساؤلات. وكل سؤال هناك من يتطوع للإجابة عليه. وتطوع من تطوع قائلا: هل تريدون أن نحضر الحذوة قبل الفرس؟ نظرات الدهشة التي أطلقتها العيون جعلته يوضح أكثر.

فقال: الدستور قبل الدولة، قبل السلطة؟ من سيسهر على تطبيق الدستور ؟ من سيحافظ على تنفيذ القوانين؟ من ؟ من؟

كما تحتاج الدولة إلى دستور، يحتاج الدستور إلى الدولة ؟ لكن ما الذي يمكن أن يوجد أولا. ثمة ثغرات كثيرة، أهمها وجود الدولة ، وليست أي دولة ولكن دولة واضحة القسمات والمعالم، واضحة الحدود والهوية ، وإلا ما الذي يعنيه الدكتور أحمد الخالدي نائب رئيس لجنة الدستور حين كتب في تقديمه لمسودة الدستور " الدستور عمل نادر التكرار في حياة الدولة ويرتبط وجوده بوجودها؟ فأين هي الدول وأين وجودها؟

لسان حال عامة الناس يقولون " تانشوف الصبي بنصلي ع النبي" و الصبي المنتظر والمنشود هو الدولة فهل شاف أحدهم هذا الصبي .

على كل حال ، وجد الدستور فيما لم توجد الدولة ، ولنفترض أن هذا الدستور قادر على الحياة والتواصل إلى أن تقوم الدولة لا بد من كلمة حق تقال.

الدستور ضروري أن تكون معالمه واضحة ، لأنه ملزم. أما إذا لم تكن معالمه واضحة فإنه يتحول إلى قيد، يتحول إلى حجر عثرة ، فلماذا نشتري سمكا في بحر إذن؟ ولماذا نستعجل في وضع القيد في أيدينا؟ ففلسطين الدولة المستقلة ذات السيادة الكاملة التي لا يجوز التنازل عنها أية فلسطين هي؟ هل هي فلسطين " خارطة الطريق" أم فلسطين" ٢٤٢" أم فلسطين التاريخية أم ..أم.. وهل يصادر الدستور حق الأجيال القادمة في مواصلة النضال؟

من يدري؟؟

ثمة نصوص كثيرة معقولة وجميلة ويصل تحقيقها مستوى الأمنيات، وبالمقابل هناك نصوص أخرى كثيرة قابلة لأكثر من تفسير . قد نضيع فيها.

وكم ضعنا في ضبابية النصوص ، وقدرتها على المراوغة. وضعنا عقودا ومانزال في تفسير قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ هل المقصود فيه الأراضي الفلسطينية أم أراض فلسطينية ؟

نحن المواطنين لا ندقق كثيرا في النصوص . نؤمن بالمثل القائل " أعطي خبزك للخباز ولو أكل نصه" لكننا في الوقت نفسه نعقد آمالا على الخباز أن يعطينا حقنا في الخبز. وهذا ما نأمله من الدستور ومن واضعي نصوصهع. نريد منه قانونا يساعد المواطن لا أن يضيف أعباء جديدة على أعبائه، نريد قانونا ودستورا يتذكرنا عندما يتذكر حقوقنا وليس فقط عند تذكره لواجباتنا. أعطني حرية أعطك التزاما، وفر لي علاجا وتعليما أدفع الضريبة حتى نحافظ على علاقة سوية بين المواطن والسلطة وتنظم هذه العلاقة بنظام يكون فيها القانون سيد الموقف.

فطالما أن الحذوة حضرت قبل الفرس، لنشحذ هذه الحذوة ، ننظفها ونزيتها حتى لا تصدأ ، ونحتفظ بها إلى أن تحضر الفرس.

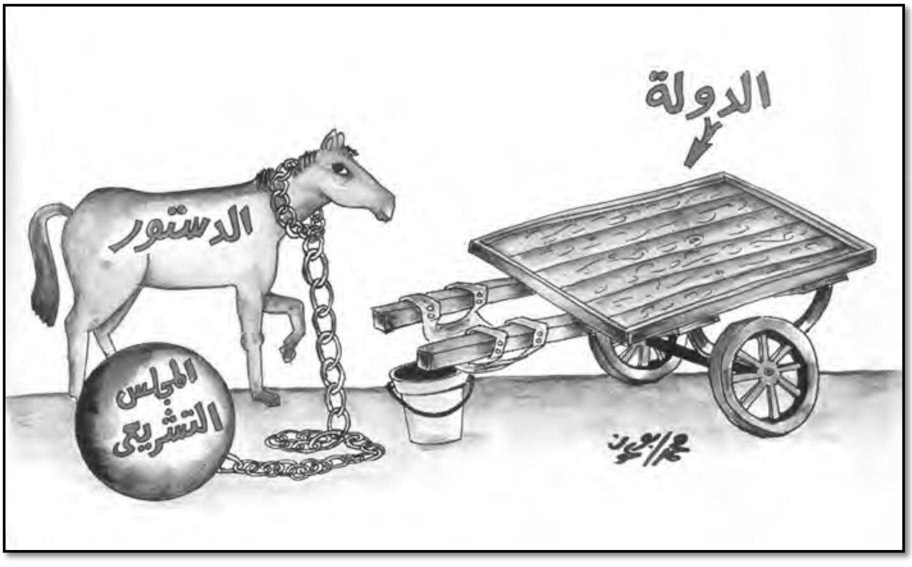

١٦-تشرين ثاني-٢٠٠٣

حتى لو كان كل ما يلمع ذهبا

فرحت كثيراً لهدية تلقيتها من صديقتي، فرحت أولا لأنها من صديقة افترقنا منذ ربع قرن، لم تشأ لنا ظروف الشتات الفلسطيني أن نلتقي ونحن ننتمي لذات التراب، وفرحت لان الهدية عبارة عن صندوق خشبي جميل برسومات بذوق جميل، لكنني رغم فرحتي حرت في مسألة، لماذا يستخدم هذا الصندوق الجميل. سألت صديقتي فزادني جوابها حيرة، حين قالت يستخدم لحفظ المجوهرات. إذن لن أستفيد من هذه الهدية أكثر من الاحتفاظ بها للذكرى أو للاحتفاظ بأشياء ليس لها قيمة المجوهرات ولا عجب في ذلك فأنا لا أقتني أي نوع من المجوهرات لسببين أولهما: مبدئي لأن المجوهرات لا تعني بالنسبة لي أي معنى ايجابي، لارتباطها باشتراطات معينة بعد الزواج مثلا ولان اليهود كما أعلم هم أول من روج لقيمة الذهب لان أثرياءهم امتلكوا الكثير منه وهذا ما تؤكده بروتوكولات حكماء صهيون، والاهم من ذلك أنه لا يشكل قيمة ضرورية لحياة الإنسان إضافة إلى أثقال يد المرأة بالقيود، وتحويلها إلى سلعة تباع لمن يمتلك ثمنها.

أما السبب الثاني وهو أنه برغم ما للذهب من سلبيات فانه يشكل عبئا اقتصاديا يثقل كاهل الأزواج وقد يكون سببا في الحيلولة دون إتمام زيجات، بل سببا في فشلها خاصة حين يكون الذهب المشروط شراؤه فوق طاقة "العريس المسكين" أو على حساب عشرات الأشياء الاكثر أهمية وقيمة منه.

لكل ذلك ارتأيت أن احتفظ في صندوقي الجميل ب" الأوتامول" العربي و ليس الاكامول أو لوضع أقراص سبيرا المضادة للبعوض أو لأي شيء يمثل أهمية في حياة الإنسان.

قد يرى البعض في الأمر مثالية، لكنها في واقع الحال لا هذه ولا تلك، بل هي وجهة نظر في موضوع أرى انه يشكل عائقا في طريق العملية التنموية الأسرية، كيف لا وأنا أرى من يكدسون الذهب سواء كان تكديسهم له نابعاً من يسر حال، أو كان مرد ذلك رضوخاً لضغط عادات وتقاليد لا تسمن ولا تغني من جوع، إنما يشكل الذهب مظهراً استعراضياً يستعرضون فيه ثراءهم الحقيقي أو يخفون به فقرهم الظاهر، في كافة الأحوال لا يستفيدون منه شيئاً أي أن أموالهم تبقى مجمدة على شكل حلي وخواتم وعقود وأقراط وغير ذلك، مع انه كان يمكن لهذه المبالغ أن تستثمر في مشاريع قد تدر ربحاً أو ربما يبقى من هذه المجوهرات ديناً ينبغي تسديده للدائنين، تنوء به الأسرة بثقل هذا الدين فيما يقبع الذهب في خزانة لا يستفيد صاحبه شيئاً إلا الخوف عليه من اللصوص.

وإذا رضخ أصحابه يوماً تحت ضغط الظروف الاقتصادية وقرروا بيع الذهب، فإنهم يكتشفون أن

ثمنه يتراجع إلى ثلثي أو نصف المبلغ الذي دفعوه، رغم أن سعر كل شيء آخذ في الارتفاع إلا أن سعر الذهب حين يريد أصحابه بيعة يتناقص، هذا إذا لم يكتشفوا أنه كان مغشوشاً، وما أكثر الغش. أو ليست السرقات التي كانت تجري على كوابل التلفونات كانت من أجل الغش في الذهب.

الرغبة الحقيقية في التنمية ينبغي أن ترافقها أو أن تنبع من رغبة حقيقية في التخلص من المظاهر الكاذبة والخادعة، والتخلي عن الانحناء "بخشوع" أمام "قدسية" مثل هذه العادات، وأن لا ينخدع الإنسان بأي لمعان حتى لو كان كل ما يلمع ذهباً.

٣٠-كانون أول-٢٠٠٣

هم بيجيب هم ودم بيجر دم

بعد انتفاضة عام ١٩٨٧ ذهبت إلى إحدى قرى محافظة الخليل النائية لجمع معلومات عن ثوار ١٩٣٦ في مشروع لكتابة التاريخ الشفوي، أحد الشيوخ والذي كان قد تجاوز الخامسة والسبعين التقيته، وأخبروني أنه مصدر غني بالمعلومات عن تلك المرحلة. وفعلا كان كذلك، لكنه بعد أن بدأ الحديث وبدأت التسجيل انتفض فجأة كمن لسعه دبور، وطلب مني وقف التسجيل، ولما حاولت أن أفهم السبب ذكر لي أن هناك ثارا ينتظره منذ تلك الثورة وأنه يخاف أن يصل التسجيل إلى أحد فينتقم منه.

هكذا وبعد أكثر من خمسين عاما ما زال يخاف من الثأر . لكنه برر ذلك بقوله : الثار لا يموت ولو مرق عنه مئة جيل.

وحاولت وحاول الناس الذين رافقوني في تلك الزيارة إقناع ذلك الشيخ لكن كافة الجهود ذهبت أدراج الرياح لأعود بخفي حنين وأنا التي قطعت أكثر من مائة كم بحثا عن هذا الرجل.

أثارت هذه الحادثة عندي عشرات الأسئلة، كيف لا يموت الثأر؟ كيف لا تؤثر المتغيرات المختلفة في هذا العالم على عقول الناس؟ هل بلغ الأمر درجة التحجر العقلي فيتقوقع العقل حول فكرة ولا ينفك عنها حتى لو كانت مدمرة؟

ما أعادني لهذه الحادثة، كثرة حوادث القتل التي نسمع عنها بحق أو بغير حق. ولا تقف الجرائم عند حد، فمتى اشتعل الفتيل سيحرق الأخضر واليابس إن لم يتم التصدي لها بقوة القانون وبحكمة العقلاء. هل انتهت خيارات الحل إلا خيار الدم؟

فإذا كان هناك حق للقاتل فلا يخوله هذا الحق لأخذ القانون بيده؟ هل أصبح إنساننا كالثور الاسباني يثيره اللون الأحمر؟ مع تسجيل الفارق في إنسانية المقارنة لصالح الثور الإسباني. فلا مجال لمقارنة اللون الأحمر لرداء قماشي ينشره المصارع أمام عيني الثور ليستثيره، وبين لون الدم البشري المسفوح هنا وهناك، لا لشيء ولكن لإشباع نزوة عابرة أو لحظة غضب جارفة بسبب مشكلة لا تستحق أن يراق من أجلها قطرة ماء. فكيف إذا أزهقت أرواح وكأن لا قانون يحكمنا، ولا نهانا عن ذلك الرب ولا كل الشرائع السماوية والأرضية.

مرة جريمة قتل هنا ومرة جريمة قتل هناك. مرة بسبب رد اعتبار ومرة لرد ثار. وومرة من أجل مال ومرة من أجل كرامة وثالثة من أجل شرف. مرة من أجل أرض ومرة من أجل عقار.ومرات كثيرة من أجل أشياء تافهة. هل انتهت كل خيارات الحل إلا خيار الدم ؟ إلا خيار الجريمة والقتل، " ودم يجر

دم وهم يجيب هم"

الإعلام المعادي يفتش عن مثل هذه النزعات ويحاول أن يثيرها ويغذيها إن وجدت، " ويخترعها إن لم توجد. هذا دأبه.وهذا شأنه يشمت ويتشفى وكأنه يقول للعالم أجمع: هكذا هم العرب، يستحقون ما ننزله بهم من عقاب، لا يستطيعون أن يحكموا وأن يسودوا، وينجر البعض وراء ذلك ليقول: "كما تكونون يولى عليكم". الاحتلال يجلدنا بسياطه ونحن نجلد أنفسنا وبسياطنا. الجرح في كفنا والسكين سكيننا.

كثيرون من يتربصون بنا، وكثيرون من يريدون وأد الانتفاضة تحت مختلف المسميات والذرائع، "يغرشون" أحيانا على جرائم القتل ويحلونها بالطبطبة وكأن شيئا لم يحدث، وأحيانا أخرى يضخمونها ويبالغون فيها. ويجدونها ذريعة لشن حملة شعواء على الانتفاضة فيطالبون بجمع السلاح ويعتبرون وجوده هو السبب. الجميع مطالبون بوضع النقاط على الحروف، لمنع انفلات الأمور من عقالها وكي لا نشوه صفحات التاريخ المشرقة.

٢٥-شباط-٢٠٠٤

هل ستبقى حقوق العمال طاسة وضايعة؟

أحاول أن أتباهى أنني في منتصف العقد الخامس من العمر ولم ارتكب جنحة تتطلب مني أن أقف بين يدي العدالة، ولكن وكما يقال "برتطم منقاري بحجر". في حياتي جنحة ارتكبتها ووقفت بسببها بين يدي العدالة في بيت لحم جنوب الضفة، تلك الجنحة أنني كتبت ذات يوم عن مشكلة عاملة تنكر رب عملها لأتعابها بعد خدمة ١٧ عاماً!.

أرأيتم أن العمر لا يخلو من الجنح!، رب العمل المذكور رفع علي وعلى الصحيفة وعلى العاملة نفسها دعوى تشهير "ضربني وبكى وسبقني واشتكى". المؤلم في الأمر ليس الدعوى. ولا موقف صاحب العمل الذي تربى على "أكل الحقوق" من عاملة تعيل والدها المسن إلى عامل يعيل أسرة كبيرة منها عدد من الأطفال وتلاميذ المدارس، لامرأة ذهبت للعمل لتعيل أيتامها...الخ من القائمة الطويلة.

ولولا شهية أرباب العمل القوية ومعدهم الجبارة القادرة على هضم الحقوق لما استطاعوا أن يكونوا رؤوس أموال تكبر وتتضخم ويكبرون معها.

كل هذا ليس المؤلم في الأمر. لكن المؤلم حقا أن هذا "العنتر تعنتر" لأنه لم يجد من يرده عن عنترته وطغيانه، لا قانون ولا نقابة ولا محكمة ولا وزارة ولا ضمير ولا حتى مخافة الله.

وتضطر صحفية مغمورة مثل "حضرتنا" فوق كل التحديات لتكتب في صحيفتها وتصبح مطلوبة للمثول بين يدي المحكمة، وان تقف هناك أمام مدع عام لم يقرأ التقرير الصحفي المتهم وأمام محام في عباءة المحامين التي لا يلبسها إلا دعاة العدل والعدالة.

دائما اشعر بالحسرة وأتساءل هل وصلنا من درجات الإنسانية أرذلها حتى تحتاج قضية مطالبة عاملة بأتعابها التي تصرفها ثمن دواء وأجرة منزل أن تحلفي القضاء؟!

نحن بلد يغص بمؤسسات حقوق الإنسان، يغص بالمحامين، ومتخم بالقضايا ودائم التشدق بالحق.

ومع ذلك فمحاكمنا تستكثر فرصة عمل على عامل، ويحمله رب عمله "مليون جميلة" على هذه "المكرمة السامية" علما أن العامل المسكين لا يتقاضى عن عمل أيام ما يكفي لأسرته قوت يومها فقط، فنجد من لا يملك الحق يناصر الباطل ضد الحق وصاحب الحق.

هل أصبح الجميع يحارب ضد لقمة خبز وضد قسط مدرسي أو جامعي. يناصرون الحقوق ضد دواء المريض. الذي يريده عمالنا ليس أكثر من لقمة نظيفة لهم ولأطفالهم يدفعون في سبيلها دماءهم

وعرق جبينهم وقواهم. هل كثير عليهم هذا الطلب؟، ويتركون في مواجهة الجشع وشراهة رأس المال دون حام أو نصير. هذا والحديث عن الرأسمال الوطني، فماذا يكون شأنهم لدى الحديث عن الرأسمال ألاحتلالي؟.

عامل اختلف مع صاحب العمل في إحدى المستوطنات ورفض رب العمل الإسرائيلي أن يعطيه أجره. وحصلت مشادة بينهما، وكان صاحب العمل يحمل عدته بيده، يهم بالمغادرة، وعندما حصلت المشادة استدعى رب العمل الشرطة الجاهزة دائما في خدمة المستوطنين، وادعى أن العامل أراد أن يضربه "بالمسطرين" والنتيجة سجن العامل، وخسر عمله وأجره وحكم عليه بدفع غرامة فورية النفاذ، وقضى في السجن شهرا بعد أن دفع مبلغا كبيرا لمحام إسرائيلي.

من يدافع عن هذا العامل؟ إذا كان القانون ضعيفا أمام رأسمال لا يملك إلا المال، هل سيكون قويا أمام رأسمال يملك المال والسلاح، والقانون نفسه؟.

وإذا كانت كلمة حق عند صاحب المال تستدعي وجود محام ومدع عام وقاض ومحكمة وشرطة؟ ترى ما الذي ينتظر كلمة حق عند صاحب المال والسلاح والقانون؟ هل ستبقى حقوق العمال طاسة وضايعة؟.

١٨-اذار-٢٠٠٤

أطفالنا الصغار ضحايا

الاستثمار والعشوائية سيدة الزمان والمكان

كان يوماً ماطراً تبلل فيه مريولي المدرسي الذي لم تكن فوقه سوى بلوزة حمراء خفيفة لم أكن أملك غيرها، دخلت الصف، عصرت بلوزتي الحمراء وعلقتها على مسمار في الحائط، وعصرت ما يمكن عصره من المريول، وبدأت "أذرع" غرفة الصف ذهاباً وإياباً لعل بعض الدفء يتسلل إلى أطرافي، وللتغلب على هذه الحالة بدأت أدندن أغنية فيما كانت زميلتي في نفس المقعد تنظر إلي بدهشة، إذ كان يقلقها أننا بعد لحظات معدودة سنكتب امتحان التاريخ، فيما لا يقلقني الأمر كما بدوت لها، زميلتي كانت من أسرة موسرة جداً، ويظهر هذا اليسر على ملابسها وعلى ملابس شقيقاتها الكثيرات في المدرسة، وعلى السيارة التي يوصلهن بها الأب أو الأخ يومياً ذهاباً وإياباً.

لم تترك دهشتها وحيرتها من أمري تطول، فبادرتني بسؤالها: استغرب ما الذي يفرحك إلى هذا الحد؟ وكأنك لا تخافين من امتحان التاريخ. وكأنها بسؤالها الصغير هذا فجرت في داخلي بركاناً من الأجوبة الحبيسة ومردها هذا الفارق الطبقي الهائل بيننا.

قلت لها: لماذا لا أفرح؟ امتحان التاريخ همٌّ صغير أمام همومي التي لا تعيشينها. فهل يخيفني إلى هذا الحد؟ وبشيء من الكبرياء قلت لها: نحن الفقراء نستطيع أن نستمتع في حياتنا أكثر منكم، ففيها الكثير من المتعة. ازدادت دهشتها وقالت: كيف؟ وكنت أنتظر سؤالها لأشرح لها فشرحت: حضرت إلى المدرسة ماشية على قدمي والمطر فوق رأسي طيلة الطريق والمسافة لا تقل عن ٢ - ٣كم فما أن وصلت الصف وارتحت من المطر المنهمر حتى شعرت بالفرح وبدأت استمتع بالدفء. أما أنت فحضرت في سيارة بها تدفئة وجئت من الفيلا الدافئة ودخلت إلى صف اجرد فشعرت بالتعاسة. ودخلت لها في مقارنة بين حياتنا وحياتهم، فحياتنا مثقلة بالمتاعب والهموم وإنهاء أي عمل من أعمالنا يعتبر إنجازاً نفرح له.

ربما كان هذا فهماً مبكراً للنظرية النسبية، لا من خلال الدراسة بل هو فهم فطري أوجدته طبيعة الحياة.

ما جعلني أسوق هذه القصة التي ما زالت جعبتي تختزن بها منذ ثلاثين عاما هو أن أطفالاً كثيرين وكثيرين جداً مازالوا يعيشون ذات التجربة وذات الفقر، ولا ادري إذا ما كانوا يمتلكون ذات الفلسفة، أم أن كبرياء الفقراء هو الذي جعلني امتلكها للتغطية على نواقصنا وعقدنا.

فزميلتي كانت قادمة في حينها من المدرسة النموذجية، ذات المواصفات العالية التي لا يقدر عليها أمثالنا، وكنت لا أعرف حتى بوجود مدارس غير مدارسنا التي تعرفنا عليها. في قريتي مدرسة كانت مكونة من ثلاث غرف تجمع كل الصفوف من الأول حتى السادس في غرفتين والغرفة الثالثة للإدارة والمعلمات.

أما مدرسة المدينة فتمتاز عن مدرستنا في القرية بعدد طالباتها الكبير وعدد معلماتها، وان لكل صف غرفة. لكن العصا هي ذات العصا، والفقر هو ذات الفقر، والتمايز الطبقي في القرية اقل بكثير عما هو في المدينة. فهناك في القرية كان الفقر قاسماً مشتركاً بين الأطفال جميعاً كما هو الغنى قاسم مشترك في المدرسة النموذجية مثلاً. واليوم نرى المدارس الخاصة ذات الأقساط وكذلك رياض الأطفال تفتح أبوابها واسعة أمام أبناء الذوات فهم القادرون على إشباع شهية المستثمرين في مجال التعليم، فيما يشاع الكثير الكثير عن أفضلية هذه المدارس الاستثمارية، بعض الناس من متوسطي الدخل ينجرون وراء هذه الشائعات، ويبحثون كما يقولون عن مستويات أعلى لأبنائهم الذين يعودون إليهم بطباع غريبة لم يتمنوها يوما لهم، وبمطالب لم يتوقعوها لماذا؟ لأنهم يريدون أن يكونوا مثل زملائهم من أبناء الذوات، وتصبح هذه المطالب مضافاً إليها أقساط المدارس الخاصة عبئا لا طاقة لهم على حمله، فيقررون إنقاذ ما يمكن إنقاذه فيعيدون أبناءهم إلى المدارس الحكومية، والبعض الأخر يتحملون العبء على مضض لأنهم يصرون على أنها "عنزة ولو طارت".

المدارس الحكومية تصاغ سياساتها وبرامجها ومناهجها من قبل صناع القرار الحكوميين، فيما صناع القرار أنفسهم هم من أبناء الذوات الذين يتجهون إلى المدارس الخاصة، ويبقى السؤال الموجه لهم، ألم تضعوا سياسات للمدارس لتكون على الوجه الأفضل؟ فلماذا لا ترسلون أبناءكم إليها إذا كانت هي الأفضل؟ أم أن الحديث عن الاهتمام بتطوير مؤسسات التعليم خدعة استهلاكية فقط؟ ولماذا تصرون على أن يبقى بين الأطفال أيضاً "صغار وكبار". هذا جانب من المشكلة ذات الجوانب المتعددة، مدارس كثيرة ورياض أطفال وحضانات أكثر، تظهر في شكل طحلبي تعشعش في زاوية البيت، أو في ساحة أو في بيت قديم، لا تخطيط ولا رقابة.

بعضهم يريد الاستثمار وبعضهم يريد البحث عن عيش مستور، وفي كلتا الحالتين العشوائية سيدة الموقف، والأطفال هم ضحايا هذا الاستثمار.

وشعار الأهل والمستثمرين والجميع "للضرورة أحكام" فمن يلبي هذه الضرورة بإحكام أكثر حرصا واقل خطورة؟

٥-ايلول-٢٠٠٤

مشاريع..شو ذنبي أنا مشاريع؟

الأولويات وما أدراك ما الأولويات هي التي على أساسها تتلقى مؤسسة ما تمويلاً من مؤسسة ممولة أو راعية.

لكن لا أحد يسأل جاداً أية أولويات؟ وأولويات من؟ ومن الذي يحددها؟

لا أحد يسأل لأن السؤال يقود إلى الجواب والجواب يقود إلى المساءلة، ولا أحد يريد أن يكون موضع المساءلة. فالكل فوق الشك. والكل يمتلكون الحقيقة وباروميتر الخطأ والصواب.

إذا ليس مهماً أولوية من هي التي "نقبض" على أساسها، هل هي أولويتنا أو أولوية المانحين؟

مشاريع... مشاريع... ينتهي مشروع ويبدأ مشروع آخر، هذا مدته سنة وهذا مدته نصف سنة، وهذا الموظف أسمه مدير وذاك اسمه منسق، وثالث باحث. وهذا المشروع له "target group فئة مستهدفة" وذاك له فئة مستهدفة أخرى. وفي المحصلة كمن يضع الماء في السقا. مهما خضه لن ينتج زبدة ولا حتى (رغوة).

لنتحدث عن – مشاريع المرأة – ولا يعني هذا أن مشاريع الطفولة والعمال وحقوق الإنسان والتنمية تختلف في شكلها وجوهرها عن مشاريع المرأة فهنا أقول المرأة للمثال لا للحصر.

أحد المشاريع كان يتضمن تدريب إعلاميين، قيض لي بحكم وضعي آنذاك في تلك المؤسسة أن أطلع على آليات العمل في هذا المشروع.

جاء الإعلاميون من كل حدب وصوب، وجاء المدربون بعض هؤلاء الإعلاميين حضر الساعة الحادية عشرة زكلفه التدريب أن يقطع الشارع من مكان عمله حتى المؤسسة المضيفة على الرصيف الآخر، في نهاية التدريب سجلت المواصلات "فهي مدفوعة" للمتدربين. سجل الذي قطع الشارع فقط أنه قادم من إحدى مدن جنوب الضفة، صحيح أنه قادم من هناك لكنه قادم إلى عمله في الأساس ومن ثم انتدبته مؤسسة لحضور هذا التدريب.

ما علينا "لن أطيل في الحديث" لكن الوضع كان محرجاً ولم أشأ أن أزيد في حراجته، وبالتالي أزيد من أزمتي النفسية التي تنتابني كلما فكرت في هذه المشاريع. قلت في مؤسستي أحس أننا لا ندرب إعلاميين من أجل تبني قضايا المرأة في كتاباتهم، لكننا ندربهم على السرقة والتكسب، تحت شعار وماله "ما حدا دافع اشي من كيسه".

الحقيقة مرة، لا أحد يقبل أن يتجرع المر لذلك يبتعدون عن الحقيقة.

ترى من سأل النساء عن أولوياتهن وكم امرأة قالت: أولوياتي تدريب صحفيين على "الجندر". وأسأل كم نسبة الفلسطينيات وحتى العربيات اللواتي سمعن بمصطلح "الجندر" أو يعرفن معنا، هكذا هي المؤسسات لا استثني منها واحدة، مشاريع نشرات، ملصقات، تدريب، وجبات دسمة ومواصلات مدفوعة، مصاريف قاعات، وأجور مدربين، والكل "بتبغدد" وكأنه سيدرب على بناء مفاعل نووي لا يلقي محاضرة قرأها عشرات المرات. وأحيانا لنفس الجمهور.

المرأة، العامل، الإنسان صاحب الحق المهضوم، الطفل وغير ذلك من الفئات المستهدفة "لا من شاف ولا من دري" يبقون جميعاً على حالهم، لا تطوير ولا تغيير إلا في تقارير المؤسسات، لا على الأرض!!!

ونعود إلى نقطة البدء. لنسأل أولويات من؟ التجربة الشخصية والتي سبقتها القناعة كانت أن المؤسسات المانحة لها أولوياتها التي تمول على أساسها، ولا تضع في أولوياتها بنداً أو مبلغاً من أجل هدف تنموي حقيقي، لها أولوياتها وسياساتها إن قبلت أن تلعب ضمن مربع هذه السياسات وتحت سقفها "فأهلا وسهلاً". أما إذا كان طموحك بسقف أعلى أو بمربع أوسع فهذا ليس شأنك ويحجب التمويل.

إلى متى سنظل أدوات تنفيذية، متي ستكون لنا سياساتنا الخاصة وأولوياتنا.

المؤسسات تكرر نفسها، مشاريع هذه المؤسسة تتكرر فيمؤسسةأخرى، حتى قبل أههن نسأل أنفسنا هل نجح الآخرون أم فشلوا ونحن في مؤسستنا سنعيد إنتاج الفشل.

ذات مرة اقترحت على عدد من "مسائيل" المؤسسات النسوية أن توحد جهودها الإعلامية في نشرة تصدر قوية، بدل أن تكون نشرات تحمل ذات المضامين لكنها ضعيفة ، وغير منتظمة وتصدر في أوقات متباعدة وبالتالي تصبح عديمة التأثير.

نظرياً سمعت استحسانا للفكرة، لكن عملياً الكل "طنش" لماذا؟ حتى لا تفتح ملفات المؤسسات المالية على بعضها البعض. وربما لأن المولين لهم سياستهم الخاصة.

غادرت المؤسسات وأنا أردد أغنية أتخيل أن لسان حال المرأة يرددها:

مشاريع يا قلبي العنا مشاريع

مشاريع وأيش ذنبي أنا مشاريع

مع الاعتذار للفنان صاحب أغنية "مقادير".

تنمية
تخلف
الحكام

١٨-كانون أول-٢٠٠٤

"أعطوني صوتكم ولن تندموا"

"طوشة" هنا على يمينك تتسع وتمتد كالنار في الهشيم، وبرامج انتخابية هنا على يسارك لا أحلى ولا أروع. تسبي العيون ببريقها الأخاذ، وتحير الناخب تشعباتها المتعددة. فكل لائحة من الوعود تحمل الكثير.

المرشحون يطمعون بالكثير والناخبون يطمحون أيضاً للكثير. لذلك نجد دائماً البرامج التي لا "تغادر كبيرة ولا صغيرة" من مشاكل الشعب إلا وتعد بحلها. ولسان حال كل واحد يقول "أعطوني صوتكم ولن تندموا".

كثيراً ما يصاب الناخب بالخذلان حتى من أقرب الخلان. فبين ما يطمح إليه الناخب وبين ما طمع به المرشح مسافة لا يعلمها إلا الله والعارفون بدهاليز السياسة والساسة.

المرشح يعد بالحرية والديموقراطية والناخب يحلم بهما. جميلة جداً تلك الأحلام وجميلة جداً الوعود. لكن ما يحير الناخب والمرشح والمراقب معا هو ما يجري على الأرض. في عز الاستعداد للانتخابات، نجد بعض فئات من الشعب من بينهم طلبة الجامعات، ومن بين هؤلاء الطلبة من يوشك على التخرج وحمل الشهادة الجامعية وبقيت الرتوش الأخيرة "اسم الله ويخزي العين على هيك خريجين" يحمل في يسراه شهادة جامعية وفي يمناه عصا أو جنزير، ولو كان يحمل في رأسه دماغاً مفكراً يحكمه قبل أن يرفع العصا لهان الخطب ولكنه والعياذ بالله يحمل في رأسه دماغاً مبنياً على عصبية القبيلة، فيرفع عصاه أو يلوح بجنزير في الهواء وتأخذه حمية الجاهلية دون أدنى التفات للشهادة الجامعية في يسراه.

شهدت ساحة جامعة بيرزيت في الأيام الأخيرة أحداثا "طوش" تثلج قلوب الأعداء. وكأني بأعداء شعبنا يتمنون أن تدوم عليهم هذه "النعمة" وان يحفظها جاهليونا من الزوال. ماذا يريد الاحتلال أكثر من شعب تنتفخ عضلات شبابه المتعلم ضد بعضهم البعض؟

نعم، المحتلون يحققون مآربهم وتعمر الفرحة قلوبهم. "الطوشة مولعة" في الجامعة، وعشرات البلفونات، جوالات على أورانجات على سيلكومات، ما قل ثمنها وما غلا، كلها تلتصق برؤوس أصحابها لطلب "الفزيعة" من الشباب الأشاوس، فيما الجنود الإسرائيليون يراقبون الوضع من "بعيد لبعيد"، من أبو قش لا يتدخلون، وربما لهم عيونهم وكاميراتهم التي تقوم بـ"الواجب" من يدري؟ ومن يدري ما إذا كان قد أرسلوا "أيديهم" لتصب الكاز على النار؟ كل شيء جائز.

تبدأ المشكلة بسبب زعرنة هنا وولدنة هناك من أفراد غير مسؤولين لتكبر وتحرق في طريقها الأخضر واليابس.

مجنون رمى في بير حجر مئة عاقل ما طالوه:

تدخل الكتلة والتنظيم والحزب والعيلة والبلد وجماعة فلان وشلة علتان. وعلى رأي المثل "مجنون رمى في بير حجر ١٠٠ عاقل ما طالوه".

تصدر البيانات وترتفع أصوات السماعات، ومكبرات صوت المرشحين ترتفع بالوعود ومكبرات صوت أخرى ترتفع بالوعيد، وتختلط أصوات الناخبين بأصوات الناحبين، والنتيجة أحقاد تملأ القلوب ودماء تسيل بعضها ويحقن البعض الآخر بتعليق الدوام. أنا مجرد مواطنة لا لها ولا عليها لا في الطوشة ولا في أسبابها ولا في تبعاتها. أسمع "تسويقات الطوشة" المختلفة جماعة فلان ضربوا جماعة علتان. ونفس أطراف الطوشة اليوم سيحملون غداً برامج انتخابية وصور لمرشحيهم، وسيهتفون باسمهم وسيتقاتلون من أجلهم. وسيتبجحون جميعهم بالديموقراطية.. وأية ديموقراطية! سأثق بها إذا كان هؤلاء لا يرونها إلا تحت ظل العصا؟

٢١-شباط-٢٠٠٥

نحن "طماعون" والعياذ بالله
فهل سنحقق ولو شيئا بسيطا من " أطماعنا"؟

وينتهي عرس الديمقراطية الفلسطينية ، رقص من رقص ، وغنى من غنى، شكك من شكك، وقاطع من قاطع. المهم العرس انتهى يوم التاسع من كانون ثاني الماضي.

ويبقى بعد العرس عادة الانتظار ، ماذا بعد العرس؟ ماذا بعد الانتخابات؟ المواطنون عبروا عن موقفهم . صوتهم كان طريقهم وطريقتهم للتعبير. والآن ينتظرون اكتمال الفرح، فهل سيكتمل؟ بدأت إعادة الانتشار في غزة. هذا جميل ، إنجاز. خاصة أن المواطن يصبو للاستقرار، للأمان . فهل ستحقق الحكومة ذلك؟ لو كان الأمر يتعلق بالحكومة الفلسطينية لهان الخطب، لكنه يتعلق بمعادلات سياسية اسرائيلية دولية أو دولية إسرائيلية العشق والهوى. فبعد الانتخابات أعلنت وزارة الداخلية الاسرائيلية في محاولة لطمأنة عتاة المستوطنين أن سكان المستوطنات في قطاع غزة قد ازدادوا في الأشهر الأخيرة بنسبة ٥٪ فيما حكومة المستوطنين جادة في توفير الأمن والأمان لهم.وهذا فهمها الوحيد والفريد للسلام. المفاوضون يجتمعون في القدس، والمستوطنون يقومون بتخريب سياراتهم .وبالتالي كل مايعيق استتباب هذا الأمن ستقضي عليه دون رحمة. وعلى ذكر الرحمة أتذكر الطفلة الغزاوية رحمة أبو شماس التي تشكل "خطرا" على أمنهم . فلأعوامها الثلاثة أذرع "قادرة" على "زعزعة أمنهم"، تماما كما كانت إيمان حجو بشهورها الأربعة لذلك استحقت القفتل. وبين إيمان ورحمة العشرات وربما المئات أو الآلاف من الأطفال الذين لم يمتلكوا من دنياهم سوى رضعة حليب أو حقيبة مدرسية. لكنهم فقدوها سواء بسقوطهم شهداء بصواريخ القصف الاسرائيلي أو أو فقدوها تحت ركام منازلهم .

آلاف الشهداء، وعشرات الآلاف من الجرحى وآلاف البيوت المهدومة ومئات آلاف الدونماتمن الأراضي المصادرة، وملايين اللاجئين.وعلى ذكر اللاجئين فإن اللاجئين العراقيين في كل العالم سمح لهم بالمشاركة في الانتخابات، بينما لم يسمح للاجئين الفلسطينيين بذلك جدارهم العنصري يبتلع الأخضر واليابس، وطن كله يبتلع بمواطنيه من أجل سواد عيون المستوطنين سواء من أستوطنوا بعد النكبة أو قبلها أو الذين يفكرون في القدوم للاستيطان من "آخر ما عمر الله". كل ذلك لا حساب له في المعادلة الدولية. ولا أحد يسأل ولا أحد يتحدث عن أي تعويض لهؤلاء ، بينما تتحفنا الأخبار اليوم بهذا الخبر:

"إسرائيليان أصيبا في عملية الدولفيناريوم قبل ثلاثة أعوام يطالبان السلطة الفلسطينية ب ٧٠ مليون دولار تعويضا".

ترى إذا كانت إصابة مستوطنين تكلف سبعين مليون دولار فهل تكفي كل ملايين ومليارات الأرض بالدولار إلى الشيكل إلى اليورو والين وكل العملات لتعويض الفلسطينيين. وهل تكفي هذه للحفاظ على ما تبقى من أمنهم إن بقي لهم شيء من الأمن؟

فيما يتعلق بالأمن هناك مئات المطالب التي يتوقع أو يصبو الفلسطينيون لتحقيقها؟ ناهيك عن المطالب الأخرى المتعلقة بمتطلبات الحياة فيما لو توفرت الحياة. فأية تنمية بدون أمن؟ وأي أمن في ظل التهديدات اليومية للبشر والحجر والشجر والمياه ،العمال في معاملهم والزراع في مزارعهم والأطفال في مدارسهم وربات البيوت في بيوتهن ...

هذا ما يطمع فيه " الطماعون " الفلسطينيون. فنحن طماعون في عين الأسرة الدولية "المؤسرلة". هل سنحقق ولو شيئا بسيطا من " أطماعنا"؟

١٩- أيار-٢٠٠٥

ثقافة "بنت عيشة"

تحضرني أبيات شعرية بعنوان "الغزو من الداخل" للشاعر اليمني الراحل عبد الله البردوني

غزاة لا أشاهدهم وسيف الغزو في صدري

فقد يأتون تبغا في سجائر لونها يغري

وفي أقراص منع الحمل في قارورة العطر

وفي سروال أستاذ وتحت عمامة المقري

فقد يأتون سرا في مناديل الهوى العذري

وفي صدقات وحشي يؤنسن وجهه الصخري

وينسلون من جلدي ويستخفون في شعري

وتحت جلودهم جلدي وتحت نعالهم ظهري

هذا جزء صغير(عينة) من قصيدة لشاعر كفيف حرمه الله نعمة البصر ومنحه نعمة التبصر العميق في الأشياء. رأى جوهر المشكلة في التنمية الثقافية، أو في الثقافة التنموية.

غزو وتبعية اقتصادية هذا هو الحال، وليس وضع الثقافة أسعد حالا من السياسة والاقتصاد.

نحتاج إلى ثقافة تنموية ونحتاج إلى تنمية ثقافية، أيهما نحتاجه أولا، وأيهما يسبق الآخر، أيهما السبب وأيهما النتيجة؟

الإجابة على هذا السؤال تماما كالإجابة على سؤال أيهما أولا " البيضة أم الدجاجة"، جدل سيدور دون أن نصل إلى نتيجة. لأننا بدون ثقافة لن نصل إلى التنمية وبدون تنمية لن نصل إلى الثقافة.

إنصافا أقول: إذا افترضنا المجتمع أو الوطن جسدا فإن أفضل حسم للجدل أن نقول أن أحدهما الذراع الأيمن والثاني الذراع الأيسر، أو العين اليمنى والعين اليسرى... إلى آخره من الثنائيات العضوية في الجسد الآدمي وحتى غير الآدمي.

فلا يمكننا أن نتحدث عن ثقافة تنموية ونحن ما زلنا نبحث عن " الخبز المخبوز والمية في الكوز".

نتباهى نحن بنسبة التعليم الجامعي المرتفعة جدا في بلادنا . ونعتقد أننا حققنا الشيء الكثير وهذه

النظرة ربما تسبب إحدى إشكاليات الثقافة التنموية، لدينا حملة شهادات وليس لدينا مثقفون تنمويون. الشهادة في كثير من الأحيان تصبح عبئا على حملها، رغم أنه سعى إليها ودفع في سبيلها الكثير وربما قضى من أجلها أحلى سنوات عمره. فبعد أن حاملها اكتشف أنه غير قادر على القبول بعمل في غير مجاله، في وقت لم يجد عملا يتناسب مع شهادته. تحوله الشهادة إلى محبط يائس، يفكر في الهجرة و"يلعن أبو" اليوم الذي قرر فيه الدراسة وتوهم أن الشهادة الجامعية ستحقق أحلامه.

الذنب ليس ذنبه، الذنب ذنب العشوائية وعدم التخطيط والخطط والمخططين، تخصصات كثيرة تفتح في الجامعات ولا يوجد فرص عمل توازيها في السوق.

ببساطة التنمية الثقافية تعني القدرة على التعامل مع المتغيرات، الثقافة بحد ذاتها ليست هدفا بل هي وسيلة من الوسائل التي تكرس لخدمة الإنسان والإنسانية. أما أن تجري الثقافة في واد والحياة في واد آخر في هذه الحالة " لا فينا ولا في ثقافتنا"

الثقافة نمط، نسق متكامل، يتكامل بالحياة، بالممارسة، إذا كانت هذه الثقافة قابلة للحياة يعني ثقافة مثل مابيقولوها" بنت عيشة"، لأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

١٥-تشرين أول-٢٠٠٤

"فراقهم عيد"

الملامح تكتسي بالتفاؤل، والعيون تتسع دهشة بين مصدقة ومكذبة.مساحات واسعة من الدمار ، رقص ودموع أطفال يتقافزون في الأزقة ومسؤولون يتفقدون أحوال المكان. الكل يحتفل بطريقته، منفردا أو مع الجماعة.

لقد انسحبوا أو "انصرفوا" و يحق للفلسطيني أن يحتفل. ففراقهم عيد.هذا أبسط وأول ما يقال. فبإخلائهم لقطاع غزة انصرفوا من بعض "برنا" لكنهم ما زالوا يحتلون جونا وبحرنا والكثير من برنا.الكل يؤكد على الفرح، والكل يؤكد أنه فرح مبتور. فالفرحة ناقصة وتحتاج وقتا طويلا وعمرا مديدا وربما لأجيال متلاحقة حتى يكتمل. من فرح له الحق في الفرح ومن حزن له الحق في الحزن، من تشكك له كل الحق في التشكك .ومن خاف فهو محق في خوفه. ولا بد أن الكل- كلنا كبارا وصغارا- يجمع في أعماقه بين شتى المشاعر المختلفة والمتناقضة .وبغض النظر اعتبر هذا الإخلاء نصرا أو اعتبر هزيمة. فكلنا يجمع على أنهم أخلوا بعد أن دمروا كل شيء، وربما لم يجدوا شيئا ليدمروه بعد أن دمروا الحجر واقتلعوا الشجر وقتلوا وجرحوا عشرات الآلاف من البشر. لكنهم عجزوا عن تدمير شيء واحد هو إرادة " الغزازوة"وقدرتهم على الحياة. إسرائيل رغم كل ما دمرته خسرت في رهانه على كسر شوكة الفلسطينيين.لكن هذا الرهان لم يكن رهانها الأول ولا الأخير. فهي تمتلك كثيرا من الرهانات. ورهانها الآن حول " هل سيتدبر الفلسطينيون أمرهم بدون" إسرائيل" أم أنهم سيدخلون في حالة من الفوضى وربما حالة من الاقتتال. هذا بالنسبة لاسرائيل ليس رهانا فحسب، بل أمنية، طموح، رغبة جامحة.أما أمنيتنا فهي عدم تحقيق أمنيتهم. .وهذه مسؤولية فلسطينية، رسمية وشعبية،وطنية وإسلامية. تلك الفرحة ارتسمت على وجوه الأطفال الغزيين، مجرم من يطفئها. وإن كانت بسمة خجولة لم تكتمل، دعوها تبحث عن اكتمالها دون قمع أو عنف أو غرور.لاتقتلوها في مهدها. فقد قتلت ما فيه الكفاية.

فوتوا الفرصة على إسرائيل، التي ستدعي أنها القادرة على حماية أمننا وسلامتنا، وبدونها سيأكل بعضنا البعض الآخر، ستدعي أنها منحتنا الحياة، وبدونها اقتتلنا. معروف أنها لا تمنح ولا تهب ، بل تأخذ فقط . وتسرق ما يتاح لها سرقته. شأنها في ذلك شأن كل الغزاة، ألم تسرق حتى رمال بحر غزة ، وسمك بحرها وماءها.غادروا غزة بعد أن خلوها خرابا شاهدا على وحشيتهم، لكنهم تركوا فيها متحفا للذكريات والذاكرة يتوارثه الأجيال. في كل ركن من أركانه آلاف من قصص محزنة، وفي كل شبر منه موضع لألف ألم وجرح. غادروها ولسان حال شارون يقول: سنعود إليكم إذا عن ببالنا

أن نعود. لا تشعروا بالأمان، لا تستقروا. لا تلبسوا ملابس نومكم ، ناموا واقفين وكلوا واقفين،واشربوا واقفين. لاتعلقوا ستراتكم على مساند مقاعدكم. ولا تسدلوا ستائركم على الشبابيك ولا حتى تسدلوها على ماضيكم.أمنكم في قبضة يدنا ورزقكم أيضا في قبضة يدنا، ماؤكم وسماؤكم أيضا في يدنا.أكثر من مليون وربع يعانون من البطالة، وكل بيت فقد شهيدا أو ودع أسيرا أو احتضن جريحا. ما أحوجنا لبعض الوقت لنفكر في البناء.عدونا هو الاحتلال، عدونا هو الدمار والخراب الذي خلفه لنا هذا الاحتلال.عدونا هو البطالة،عدونا هو الفساد بكل أشكاله وتفاصيله. فلتكن حربنا على كل هؤلاء،بهذا فقط نحقق بعض استقرارنا ونقهر المتربصين بنا والمنتظرين لعثراتنا وللشماتة بنا. هكذا وببساطة

١٧-كانون أول-٢٠٠٥

هل يتحول أمل البلاد إلى يا ئس يثير الشفقة؟

فرض المناضل العالمي نلسون مانديلا احترامه على القاصي والداني حين تخلى عن مركزه طواعية ليتيح المجال لخبرات الشباب ويفيد وطنه منها. الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز قال: يكفي أن يقول ربع الشعب لا نريدك حتى أتخلى عن موقعي.

فيما لم يتخل أي زعيم عربي سواء كان رئيسا أو ملكا أو أميرا أو قائد حزب يميني أو يساري عن موقعه إلا بالموت أو بالخلع أو بالانقلاب. يعني الكراسي اللاصقة" المدهونة ب"السوبر غلو" اختراع عربي أصيل. ويحق لنا نحن العرب أن نسجل فيه براءة اختراع؟ وربما هذا عامل من العوامل التي " قوت عين" الدخلاء والأجانب أو وجدوا منها حجة لنشر" الديمقراطية".

ويتصرف كل على " كرسيه" وكأنه ولد على هذا الكرسي أو كأنه صمم خصيصا على مقاسه، نحف أو سمن، طال أو قصر ، أو كأنه اشتراه بماله أو ورثه عن أبيه ويريد أن يورثه لولده.

التقيت ذات مرة بأحد الشبان العرب مهاجر في دولة عربية أخرى وعضو في أحد الأحزاب اليسارية العربية فقال منتقدا قيادة حزبه: "حين كان القائد الفلاني قبل أربعين عاما مطلوبا كانت كل بيوت الوطن مستعدة لاحتضانه ، أما اليوم أتحداه أن يجد بيتا واحدا يحميه بعد أن لصق بمقعد القيادة طيلة هذه المدة".

سواء كان هذا القول دقيقا أم مجحفا إلا أنه يعبر عن حالة اسمها مقت الجماهير لحالة البلادة السياسية لدى كثيرين ممن يسعون لتجميد الزمن ليبقى هذا الزعيم أو ذاك في مكانه لا يتغير. يزوّرون الدساتير والتاريخ ورغبات الجماهيروإرادتها " كرما لخاطرهم وخاطرالسوبرغلو تبعهم".

خبرات القدامى على راسنا من فوق وكل الاحترام. لكن الشباب أيضا يجب أن يلعب دوره، ومجتمعنا مجتمع شبابي ، فمن يعبر عن تطلعات الشباب واحتياجاتهم أكثرمن الشباب أنفسهم ؟

وينسحب هذا القول على الهرم السياسي والهرم الحزبي والمؤسسات.في هذا الصدد أذكر أول بيت شعر غير مدرسي حفظته في حياتي وتباهيت به أمام معلمتي وزميلاتي عندما كنت في الثالث الابتدائي هو :

وهدى التجارب في الشيوخ وإنما أمل البلاد يكون في شبانها.

كان ذلك عام٦٧ حيث حفظت البيت حفظا ببغائيا من مجلة الهلال دون أن أفقه معناه. ولم يزايل

ذاكرتي كونه أول بيت أحفظه، ثم لازمها فيما بعد حين أصبحت أدرك معناه وما فيه من حكمة.

المؤسسات الشبابية كثيرة في وطننا ولا حسد. لكن مفعولها هوالذي أصابته "عين حاسد".فعلى مستوى قيادات المؤسسات يتسلم المؤسسة شخص في شبابه او في آخر مرحلة الشباب ويبقى على رأسها حتى يشيب ويشيخ. المؤسسات الشبابية، شأنها شأن كثير من المؤسسات ينسخ بعضها عن بعض. ينعدم التنسيق بينها ، وكل مؤسسة تعتبر نفسها الأب والأم الطبيعيين للشباب، والمتبني الحقيقي لقضاياهم .

كم أتمنى من قلبي لو كان ذلك حقيقة. ولو كان هناك تنافس شريف على تقديم الخدمات للشباب وفهم قضاياهم. لقلنا مرحى وأهلا بزيادة عدد المؤسسات. لكن السؤال القائم والمشروع هو كم مؤسسة شبابية قامت بناء على دراسة لدور الشباب واحتياجاته؟ كم مؤسسة نفذت مشاريعها من اجل تلبية هذه الاحتياجات؟

كم مؤسسة تعرف عن مشاكل الطلبة ؟ مشاكل الخريجين، مشاكل البطالة ، مشاكل الزواج وغير ذلك من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية .

قبل بضعة أشهر كنت في أحد مكاتب السياحة والسفر لشراء تذكرة ، دخل شابان على المكتب، طلبا من الموظف أن يساعدهما في الحصول على فيزا . سألهما فيزا إلى أين؟

فردا على سؤاله بسؤال: أي بلد يمكن أن تعطي فيزا؟ نريد ان نسافر، أن نهاجر، نريد ان نجد عملا...اعتذر لهما لأن المكتب لا يساعد في ذلك. خرجا فيما كنت أحس بدمعتين كبيرتين وغصة في حلقي. قال الموظف معلقا: لا يمر يوم إلا ويأتينا شباب على هذه الشاكلة. مساكين يثيرون الشفقة.

فهل يتحول أمل البلاد إلى يا ئس يثير الشفقة؟ نريد مؤسسات شبابية تسمع الشباب، تفهم همومهم، تساعدهم على الخروج من أزماتهم ، تستثمرهم تخطط للاستفادة من طاقاتهم ، كفاءاتهم، استفادتهم هم، استفادة المؤسسات واستفادة الوطن.

١٧-نيسان-٢٠٠٦

حذار من حرب ديوك يذبح فيها الغالب والمغلوب

يسألوننا نحن عامة الناس ما الذي نريده من المجلس التشريعي؟ نقول لهم: بل ما الذي لا نريده. لأن ما نريده أكثر بكثير مما لا نريده. نحن نريد ما أردناه من المجلس السابق مضافاً إليه ما نريده من المجلس الجديد. نحن الآن أمام مرحلة استثنائية، أمام واقع غير متوقع في حسابات الساسة، كلهم أو أغلبهم. وحسابات الساسة تختلف عن حساباتنا نحن البسطاء، لأننا ننظر للمسألة من زاوية مصلحتنا نحن كأفراد أو كاسرة أو فئة اجتماعية أو كشعب ووطن.

حيث أنا في غربتي الآن في روسيا كثيرا ما أصطدم بحقائق مريرة. أكثر هذه الحقائق مرارة أن بعض الدوائر والبنوك، يستغربون حتى اسم بلدنا فلسطين، يسألونك وهل لها اسم آخر؟ نقول لهم أن لا اسم آخر لها، ونشرح لهم موقعها على الخارطة، حدودها، يصدمنا البعض بقوله: تقصدين إسرائيل. كإعلامية أول شيء أفكر فيه أن الأسرائيليين وأعوانهم وحلفاءهم، أوصلوا ما يريدون من رسائل للعالم بكل ما فيها ما أكاذيب وقلب للحقائق. لذلك أول ما يخطر على بالي أن أطالب الحكومة بسياسة إعلامية واضحة تستطيع أن توجه وأن توصل رسائل شعبها إلى العالم. لنحافظ على اسمنا ووجودنا، أما ما أريده أو نريده فهو أن نحافظ على مقومات هذا البقاء ونخلقها.

ما نخافه أن تتعامل الفصائل الكبرى " الديوك" معنا وكأننا أفراد في مزرعتها الخاصة. وبالتالي ما تراه هذه الحركة أو تلك يخدم مصالحها "الفصائلية" تعتقد أنه بالضرورة يجب أن يخدم مصلحة الشعب والوطن. فينقلب الحلم من حركة تتسع للشعب وقضاياه إلى شعب ووطن يضيقان ليصبحا على مقاس هذه الحركة أو تلك. وتتناسى أننا مازلنا أسرى لاحتلال يحاول أن يجعلنا جميعا شعبا وأرضا ،حكومة وفصائل على مقاس مصالحه.

مصلحة الشعب فوق مصلحة الفصيل أو الحركة، هذا هو مطلبنا الأول. نريد حكومة قانون لا حكومة "كل من إيدو إلو". حكومة لديها بعد نظر، حكومة تخطيط "ما استطاعت إلى ذلك سبيلا" ولا نريد العشوائية. نريد خططا وخطوات حقيقية تعمر على الأرض لا حكومة نخترع قوانين أو قرارات انفعالية "كالكؤوس البلاستيكية أو كالمحارم الورقية" نستعملها لمرة ثم نرميها، نخترعها لتمرير قضية ما. نريد إعلاما قادرا على منافسة الإعلام الإسرائيلي وإيصال الصورة الحقيقية للعالم. نريد حكومة تترفع عن كل المحسوبيات العشائرية والفصائلية. تعطي من يستحق لا من يروق لها أن تعطيه. نريد حكومة تتعامل مع النساء كمواطنات كاملات الحقوق والصلاحيات والواجبات، تحترم أمومتهن فيأخذن حقوق الأمومة، مذكرين أن احترام الحقوق لا يكون "بتعليب النساء وتغليفهن" بدعوى

الحفاظ عليهن وتكريمهن. تكريمهن يأتي بإطلاق حريتهن. من وصايات وولاءات غير مبررة.

العالم كله ينتظر. وما من حكومة في بلد صغير كفلسطين أخذت نتائج انتخاباتها هذا الصدى الإعلامي . حتى أن كثيراً من الروس الذين صادف أن التقيتهم بعيد الانتخابات، كانوا يعربون عن "تضامنهم" معي، وأشكرهم إذ أعتقد أن هذا التضامن جاء على خلفية هذه المذبحة أو تلك من المذابح الإسرائيلية اليومية ضد شعبنا. لكنهم يصدمونني بأنهم يتضامنون معي بسبب صعود حماس إلى سدة الحكم عندنا. وسقوط دعاة السلام. يتخيلون من وجود سلطة حماس" شعبا أميا" ونساء" ملفعات" لا يظهر منهن سوى العيون. يتخيلون أشياء سلبية كثيرة. لذلك ما نريده من الحكومة ومن المجلس التشريعي على اختلاف تركيبته أن ينظروا للأمور بعينين مفتوحتين، عين تنظر للشعب وتفهم تطلعاته وأخرى تنظر إلى العالم وماذا ينتظر العالم منها. لا أقصد من ذلك أن ترضي العالم بأي ثمن. ولكن أن ترضي شعبها وتجعله قادرا على مواكبة التطور في العالم. لأننا لا نريد حكومة " تيتي تيتي مثل ما رحتي جيتي" . وأن تترفع عن "حرب الديوك".

كنا في طفولتنا نهتف تشجيعا للديوك المتحاربة: " اللي بيقدر بربيه ويوم العيد بخبيه" بمعنى أننا سنحميه يوم العيد من الذبح. لكن حرب الديوك في السياسة، يذبح فيها الغالب والمغلوب على مائدة الحيتان .

١٠-حزيران-٢٠٠٦

قبل أن يشهر الجياع سيوفهم

لسنا الأكثر جوعا ولسنا الأشد فقرا بين شعوب الأرض . لم نصل إلى ما وصلت إليه الصومال ولا السودان ولا الكثير من دول إفريقيا وآسيا. لم نبحث بعد عن حبات الفاصوليا التي تلقيها لنا طائرات " المحسنين" بين رمال الصحراء ولم نحاول التقاط الدقيق من بين الأشواك. ولم يسر أطفالنا حفاة عراة، ولم تأكلنا الأوبئة بسبب الجوع او الجفاف او الكوارث الطبيعية، وما زال العيش ممكنا وممكنا جدا رغم كل الضغوط العالمية والعربية ومحاولات الإخضاع عن طريق التجويع وتوقف الرواتب. إذن توقف الرواتب ليس هو الأسوأ بين كل المعانيات التي نعانيها. بشيء من الصبر وشيء من إعادة تأهيل الذات على العيش بكرامة ، و" ترميم " العلاقة مع الأرض لنصبح وإياها عنصرين يتفاعلان التفاعل الإيجابي المطلوب وشيء من التأهيل الوطني بشقيه التكافلي والتضامني لأصحاب المنشآت الاقتصادية والمؤسسات الفلسطينية المختلفة ، نستطيع دون شك أن نقف صامدين في وجه الكثير من الضغوطات السياسية والاقتصادية. ما زلنا قادرين على مواصلة الحياة دون أن نركع. توقف الرواتب لأشهر سيئ لكنه ليس الأسوأ. فأسوأ منه هذا الاقتتال الذي لا مبرر له، الأسوأ منه، أن يسيل الدم الفلسطيني على يد الفلسطيني نفسه، الأشد من ذلك أن تنتشر نار الفتنة التي تحرق في طريقها الأخضر واليابس، والأنكى من ذلك أن يصبح الصراع فتحاويا حمساويا (وطنيا وطنيا) بطريقة تصبح القيمة المقدسة للوطنية تافهة ونحن الشعب الذي لم يمتلك على مر الاحتلالات المتعاقبة سوى القيمة الوطنية التي استحقت التضحيات الجسام ومئات الآلاف من الشهداء والجرحى.

قبل فترة ليست بعيدة كتبت مقالا في صحيفة عربية ذكرت فيه أننا___ الفلسطينيين___ نعتبر أنفسنا محظوظين حين يكون عدد الشهداء اليومي أقل من خمسة والجرحى أقل من خمسة عشر. هذا الوضع جعلنا نتلقى نبأ الاستشهاد بدموع أقل، و بفخر أكبر. إننا الشعب الوحيد الذي تطلق الفضائيات (خاصة الجزيرة والمنار) على قتلاه صفة الشهداء، وهذا تدليل على نقاء الهدف الذي يموت لأجله الفلسطيني ووضوحه وقدسيته . وحين سقط أول فلسطيني على يد فلسطيني آخر في قطاع غزة وأوردت الجزيرة نبأ "مقتل" فلسطيني دون أن تذكر كلمة شهيد بكيت كأني أسمع نبأ موت فلسطيني لأول مرة في حياتي، أو كأني سمعت عن مقتل آخر فلسطيني على وجه الأرض. ماذا تبقى لنا إذاً بعد أن نفقد هذه القيمة؟ هل نلوم الجزيرة والفضائيات الأخرى أم نلوم الذين استجابوا لفتنة الله يعلم ونحن نعلم أية يد قذرة يمكن أن تطلق رصاصتها الأولى واي هدف قذر يكمن وراءها.

الاقتتال الداخلي يفقدنا البقية المتبقية من احترام العالم لنا ولقضيتنا. لنعترف إذن ولنعترف كلنا حماسا وفتحا ومعارضة برلمانية او خارج البرلمان ان هناك مشكلة. الناس كل الناس يتساءلون بقلق: ماذا بعد؟ المشكلة تجر الى مشكلة والمكابرة تجر الى جريمة وكل التفاصيل تجر الى شعب منهك جائع؟ فمن يمتلك مفتاح باب يفضي الى الحل؟ مللنا الأبواب التي تفضي الى المزيد من التدمير. كفانا سفك دماء. وليبحث صانعو القرار في الحكومة والرئاسة عن بدائل للأزمة الاقتصادية بدلا من البحث في تفاصيل من طراز " من المسؤول؟". الكل مسؤول. بشكل او بآخر. الجوع كافر. عالجوا الأمر قبل ان يجوع الناس ، وحتى لا يخرج الجياع من بيوتهم شاهرين سيوفهم .الناس لن يسكتوا طويلا ورحم الله ابا ذر الغفاري.

٣٠-ايلول-٢٠٠٦

الضيف بغض الضيف

عندنا مثل يقول: "الضيف بغض الضيف والمحلي بغض الكلي (الكل)". كل القيادات ضيوف على هذا الشعب، والشعب وحده هو المحلي (أي صاحب البيت)، لأن صاحب البيت أبعد ما يكون عن بغضاء الضيوف فيما بينهم، ولا علاقة له في كراهيتهم لبعضهم، قد يتحملهم قليلا أو كثيرا، لكنه إذا أحس أن ضيافتهم "سَتَسمٌّ بَدَنَه" وبَدَنَ أهله سيرفضهم جميعا ويطردهم جميعا.

ما يجعلني أستذكر هذا المثل كل لحظة، هو الحال الذي وصلنا إليه.

فالكل ينتقد الكل، والكل يشتم الكل، والكل يتهم كل واحد من قادة أو كوادر أو ممثلي العمل الوطني والجماهيري، من فصائل السلطة أو من المعارضة، وينظر للآخرين كلهم على أنهم خاطئون خطاءون ووحده المعصوم عن الخطأ، وحده من حباه الله بنعمة الابتعاد عن الخطيئة.

كلنا نمتلك ملكة النقد، لكن لا أحد فينا يمتلك ملكة النقد الذاتي أو يعترف بأنه أخطأ ذات يوم، أو أنه مسؤول عن أية مشكلة أو عن أية نتيجة مهما كان ضالعا في المشكلة. وننسى أن: خير الخطائين التوابون، بل ونستبدل "التوابين" بـ "النَّسَّائين".

الموظفون بلا رواتب والطلبة في الشوارع، أبواب المدارس أصبحت ملاذا آمنا للعناكب الضالة، والمرضى ليس لهم إلا وجه الله. من يشجع الإضراب يمارس الضغط على الحكومة فيما لا يمارس أي ضغط من أجل تخفيف الحصار، ومن ضد الإضراب يخوّن المضربين ويشكك في وطنيتهم. والناس أصبحوا في حيص بيص. والمعارضة التقليدية اليسارية أعجز من أي فعل. والكل يسمعنا كلاما وكله كلام في كلام. لا يسمن ولا يغني من جوع.

بعض الفلسطينيين مستعد لأن يلتقي حتى مع الشيطان دون أن يضع شروطا لهذا اللقاء، وفيما هذا البعض يصرح بذلك نجده في ذات الوقت يضع الشروط والعراقيل للحيلولة دون التقائه مع قائد فلسطيني آخر من فصيل آخر.

يا إلهي، لماذا كل هذا التباغض والتنافر؟ من أجل ماذا؟ نغض الطرف عن عشرات القواسم المشتركة ونتمترس وراء قضية خلافية. كيف سنحرر وطنا وكيف سنبنيه بهذه العقول؟

قبل كتابة هذا المقال كنا نجلس أمام التلفاز. مشاهد كثيرة ومواقف كثيرة وأحداث كثيرة نجد عيوننا تلتقي سوية دون سابق اتفاق عندما نشاهدها أو نسمعها. كان أحد سائقي سيارة الإسعاف

اللبنانيين من حزب ميشيل عون اسمه آرام شلو يتحدث عن تجربتهم خلال الحرب ونقل التموين والغذاء والإسعاف لعائلات المهجرين من الضاحية الجنوبية، قال بتأثر: "سابقا ما كانت الضاحية تعني لي شي هلق صرت اروح لها يوميا وأحس إني مرتبط كثير بالعائلات اللي فيها. مش مهم الطوائف المتعددة، لبنان كله شخص واحد". أنا وزوجي - القادم من مؤتمر صحفي تحدث فيه ممثلو كل القوى وانتقدوا وأكد كل واحد منهم أنه "الصح المطلق" - نظرنا إلى بعضنا ودون سابق اتفاق تبين أن دموعا كثيرة كانت تستعد للهطول وكأنها تقول: أحرام أن تكون فلسطين "شخصا واحدا"؟ ما أحوجنا إلى قيادة توحدنا تحت ظلها! ما أحوجنا إلى "سماحة سيد" فلسطيني!

وساعتها لن يبغض الضيف الضيف، وسيسعد صاحب البيت باستضافة الضيوف وإكرامهم.

٣١-تشرين أول-٢٠٠٦

في "ماسية" الزيتون و"شلتونة" الحكومة
الزيتون الأخضر لليوم الأسود

لولا الحياء لشكرت أزمة الرواتب . لا لأنني "غاوية فقر" ولا لأنني من أؤلئك الذين يعيشون على الأزمات وليس لي مصلحة خاصة، ولست ممن يراهنون على تفاقم أزمة الحكومة كسبيل إلى إخفاقها نهائيا..ولا لأي سبب من هذه الأسباب كلها. ما السبب إذن؟

السبب يا طويلي العمر والسلامة هو استفسار الناس بلهفة عن موسم الزيتون هذا العام. هل هو " ماسية" أم " شلتونة"؟ الماسية بالنسبة للزيتون هو أن يكون الموسم جيدا. أي أن يحمل الزيتون بشكل جيد. والشلتونة عكس ذلك تماما. والزيتون لمن لا يعرفه في بلادنا سنة " ماسية" وسنة شلتونة". السنة ذات الرقم الزوجي " ماسية" والسنة ذات الرقم الفردي" شلتونة" . ليس هذا قاعدة. لكنه في بلادنا التي تعتمد زراعتها على " تساهيل المولى" أصبح قاعدة وإن كانت هناك بعض الاستثناءات. كأن تأتي شلتونة وشبه شلتونة ثم شلتونة في ثلاثة أعوام متتالية.

هذا العام ٢٠٠٦ عام الماسية بالنسبة لموسم الزيتون لكنه عام " الشلتونة " بالنسبة للحكومة ، وبالتالي لموظفي الحكومي. فوجد الفلاحون من هؤلاء الموظفين - وهم كثر- في ماسية الزيتون بعض التعويض عن " شلتونة " الرواتب" التي امتدت منذ مطلع العام و لا يعلم آخرتها إلا علام الغيوب.

لذلك للزيتون مذاق خاص هذا العام. لم يعد شيئا هامشيا كما كان طوال عقد مضى لدى الكثيرين من الناس وخاصة لدى الموظفين. كثيرون منهم كانوا يقولون أن الزيتون" ما بيجيب همه ولا تعبه" وكثيرون قالوا : لو نشتري زيت المونة أريح من التعب. وكثيرون تركوا زيتونهم مهملا ، أو بحثوا عمن يقطفه بدعوى ضيق الوقت. فهم موظفون ومكاتبهم تنتظرهم ليملأوها.

هذا العام كثيرون من ينتظرون الموسم، وكثيرون منهم لا يجدون ثمن كيلو زيت ليتبجحوا ويقولوا " نشتري زيت المونة" وكثيرون ممن أهملوا زيتونهم وتركوه فريسة للشوك والخراب يعضون أصابعهم ندما الآن، لأنهم ما حسبوا حسابا لهذا اليوم، يوم ينفعهم الزيتون الأخضر في اليوم الأسود. قبل بضعة أعوام كتبت في "البيدر" وفي العمود ذاته مقالا بعنوان" لو كنت مكان السلطة" أقترح فيه على السلطة أن تقلل من ظاهرة البطالة المقنعة المكدسة في مكاتب وزاراتها ومؤسساتها بأن تدفع لموظفيها نصف راتبهم وبدل أن يداوموا في وزاراتهم يشربون الشاي والقهوة ويرهقون هواتف الوزارات باتصالاتهم الخاصة، وتطلب منهم التوجه إلى أرضهم للاهتمام بها. وبذلك نجد أنفسنا

بأرض معمرة ونقلل من اتكالية الموظفين على السلطة وقادرين على مواجهة لحظة لا يكون فيها دول مانحة ولا رواتب. للتذكير فقط عدت لهذا المقال.ولكن سبق السيف العذل.ورحم الله جارتنا "أم عبلة" التي كانت تقول: لو كان معي قرشين كانوا سمعو مني"

٧-شباط-٢٠٠٧

لا تسيروا على خطى صبيحة

تستدرجنا رام الله ، المدينة التي أحببناها واحتلت في نفوسنا منذ الطفولة موقعا، منذ كانت رؤيتنا لها أو "سفرنا" من القرية إليها يشكل تاريخا بالنسبة لنا. لذلك عندما كبرنا ظل هواها طفلا يمسك بتلابيبنا أينما ذهبنا، ويجبرنا على التوجه إليها.

لكن أشياء كثيرة تصدمنا رؤيتها. هذه الفوضى التي لا أول لها ولا آخر، فوضى في كل مكان.. السيارات المؤهّلة وغير المؤهلة للسير على الشارع ونقل الناس بكل ما تقتضيه أمانة كبيرة، كالمسؤولية عن أرواح البشر ..فوضى "الزوامير"..حتى عندما ينزل الشرطي لتنظيم السير ومراقبته تنشأ فوضى عارمة وأزمة خانقة تضطرك للوقوف عشر دقائق دون أي تقدم وسط رتل من السيارات وصراخ السواقين وتذمر الركاب.. تسأل ماذا حدث؟ الجواب : الشرطة على الطريق. فوضى السير ..فوضى البناء.. فوضى الباعة.. فوضى الاستغلال .

في رام الله التي أحببت، ذهبت لشراء حذاء لإبني ولما لم يكن لدى البائع النمرة المطلوبة، فقد ألصق ورقة تحمل النمرة المطلوبة فوق نمرة أكبر منها وأعطاني الحذاء ، ولما رحت أبدله وجدته هو هو ولكن يحمل خدعة جديدة دون حياء أو دون أن يخطر بباله أن حيلته مكشوفة.

في رام الله التي أحبها حد العشق يستفزني منظر لشاب في أحسن هندام ويحمل حقيبة "سمسونايت" يمد يده إلى جيبه ، يتناول كومة من المحارم المستعملة ويرميها في الشارع دون أي مسؤولية أو وخزة ضمير. دون خجل من الناس أو من عيون الأسود الرابضة على دوار المنارة المحدقة في كل الاتجاهات، وحتى دون أي اعتبار لأناقته ذاتها. كل ذلك إلى جانب جيش محتل يدخل إليها وتزيح بلدوزراتهم سياراتها وبعض معالم شوارعها كما تزيل كومة قمامة.

أشياء كثيرة أكثر من أن تحصيها تواجهك يوميا، تثير اشمئزازك، وربما تبعث على شيء من الإحباط وأنت ترى المدينة التي أحببت ونما حبها فيك يوما بعد يوم. هذه المشاهد تشعرنا أننا بعيدون جدا عن تنمية حقيقية، وأننا ما زلنا في عرض بحر هائج مائج متلاطم الأمواج، وتفصلنا عن شاطئ الأمان عقود طويلة.

هذا الحال ليس حال رام الله فحسب، لكن عشقي لها وزيارتي اليومية فقط ما دفعني لأن أذكرها على وجه الخصوص . لكنها صورة عن كل المدن والقرى والمخيمات . وربما هي الأفضل حالا بينها وإن اختلفت التفاصيل.

الاحتلال مسؤول ، قياداتنا مسؤولة ، أجهزتنا مسؤولة، أحزابنا وتنظيماتنا مسؤولة ، فصائلنا المسلحة مسؤولة ، تجارنا مسؤولون ، نحن - المواطنين والمستهلكين- مسؤولون. عيبنا أن كلا منا يلقي المسؤولية على الآخرين ويبرئ نفسه، رغم أننا عند حدوث أي حدث إيجابي يدعي كل منا أنه ساهم في خلق هذا الإيجابي وكأننا نتبع " الحكمة" القائلة : الهزيمة يتيمة أما النصر فالكل أبوه. أو أننا نسير على "خطى صبيحة" التي قيل عنها المثل : "إذا أجت مليحة من صبيحة وإذا أجت عاطلة قولوا من الله" . والله بريء من كل مصائبنا وأخطائنا وخطايانا. نحتاج إلى "مكارنكو" عصري كي يعيد تربيتنا من جديد.

٢٧-شباط-٢٠٠٧

هور يابو الهوارة... نسيونا جوا الوزارة

أن يكون شخص ما نسيا منسيا فذلك ما لا تتمناه حتى له حتى لو كان عدوك، فما بالك إذا كان هذا النسي المنسي بيتا أو مبنى، أو قرية بأكملها أو حارة بكل ما فيها، أو منطقة كاملة في وطنك وليس في مكان آخر، وكيف اذا كان ما يحدث لبني جلدتك وليس لقوم غرباء؟ هذا بلا شك يورث شعورا بالقهر والمرارة لدى الجميع خاصة أصحاب القضية.

فهذه المناطق تبقى منسية في لحظات الخير ، لا أحد يراها ولا يتذكرها، لكن الشر لا ينساها: فلا يطالها التعمير ولا مشاريع التطوير، ولا تمر بها نسائم التغيير. يبقى كل سيء على سوئه بل ويزيد، لأن هذه المناطق ليس لها من يدافع عنها ولا من يتحمل مسؤولياتها.

كثيرا ما زرت شارعا منسيا بين مدينتين، لا تعترف به بلدية هذه المدينة ولا تلك، وبالتالي يتحول إلى مكب لنفايات يلقيها أناس من المدينيتين، ولا تجمع قماماته اي من البلديتين، كما كان حال شارع المصايف الضائع بين بلديتي رام الله والبيرة ذات سنة. لا أدري إذا ما تبنته واحدة من البلديتين أم أنه ما زال منبوذا مهجورا وكأنه لقيط لا يعرف له أبا أو أما.

الحالة ذاتها رأيتها في "حارة السلمية" التي كتبت عنها حينها " حارة السلمية المنسية نسيها الكل وتذكرها المستوطنون". هذه الحارة التي تقع مقابل مستوطنة "بيت إيل" بين مخيم الجلزون ومدينة البيرة، لا تعترف بها مدينة البيرة فتفيدها من خدماتها، ولا تعترف بها وكالة الغوث فتفيدها بشيء مما تقدمه لمخيم الجلزون. "بيت ايل" هي الجهة الوحيدة التي تعترف بها أنها "ملك لها" وضمن صلاحيتها، فتقدم لها الوجبة تلو الوجبة من الرصاص والتهديدات. تفيض مجاريها ولا أحد يدري بها، يلاحق سكانها رصاص الجنود والمستوطنين ولا من سائل عنهم، لا خدمات هناك ولا ما يحزنون، لاجئون وما هم بلاجئين، مواطنون وما هم بمواطنين، كأنهم جردوا من حقوق المواطنة وحقوق الحياة، يلتفون حول كل غريب على أنه صحفي أو حقوقي بوسعه أن ينقل همهم لمن يستطيع أن يفرجه عنهم، لكن خيبة أملهم تكبر وتكبر مع كل عام يمر.

لمثل هذه المناطق قادتني قدماي وظروف عملي كثيرا. فمنها ما زرته في شمال الضفة ومنها ما هو في جنوبها، بيوت وخرب، حارات وشوارع، ولو كان ممكنا الوصول إلى قطاع غزة لرأيت مثل ذلك الكثير الكثير.

وطننا الصغير يغص بمثل هذه الحالات، بعضها صار مكبا لنفايات المستوطنين، وبعضها للنفايات

النووية فتنتشر الأوبئة من كل نوع، وتزورها الحشرات السامة والهوام من كل حدب وصوب، في الليل والنهار، ولا سائل ولا مسؤول.

عن مثل هؤلاء المنسيين عام ١٩٩٦ كتبت أغنية ساخرة تقول :

هور يابو الهوارة

خبرلي جارك والجارة

تذكرنا وقت التصويت

نسينا جوا الوزارة

لم يتغير شيء سوى أن الوضع يزداد سوءا والسخرية تزداد مرارة .. وهور يابو الهوارة!

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

برنامج دراسات التنمية

برنامج دراسات التنمية هو أحد البرامج المتخصصة في جامعة بيرزيت. أنشئ البرنامج في العام ١٩٩٧ كامتداد لمشروع التنمية البشرية الذي قام بإصدار أول ملف للتنمية البشرية في فلسطين.

يشرف على عمل البرنامج ونشاطاته لجنة تتألف من عدد من الأكاديميين والإداريين في جامعة بيرزيت، ويدعم البرنامج أكاديميا وفنيا الوحدات العاملة في الجامعة. كما وينسق البرنامج أعماله مع مؤسسات المجتمع الحكومية منها وغير الحكومية ويستعين في متابعة أنشطته ومشاريعه بمجموعة من اللجان الاستشارية وبلجنة وزارية تضم ممثلين عن الوزارات المعنية بتقرير التنمية البشرية الدوري وبفرق متخصصة من الخبراء والمستشارين في مواضيع تنموية مختلفة.

يسعى البرنامج إلى بلورة مفاهيم وأطر تنموية تتلاءم واحتياجات المجتمع الفلسطيني المتجددة، والى نشر الوعي حول التنمية في سبيل تعزيز قدرة الإفراد والمؤسسات على المساهمة الفعالة في العملية التنموية. ويتم تحقيق أهداف البرنامج من خلال القيام بالمهام التالية:

- إعداد الأبحاث والدراسات التنموية في المجالات النظرية والتطبيقية.
- إعداد المسوحات واستطلاعات الرأي.
- إصدار تقرير دوري حول التنمية البشرية في فلسطين، أسوة بأقطار أخرى في العالم.
- إنشاء مركز للمصادر التنموية يضم مراجع حول التنمية وقواعد للبيانات.
- تنظيم نشاطات تنموية توعوية بهدف تعزيز النهج التنموي في المؤسسات الفلسطينية.
- تنظيم نشاطات مجتمعية توعوية ضمن المجموعات المهمشة في المجتمع وذلك بهدف تمكين هذه المجموعات ودمجها ضمن مختلف النشاطات التنموية.